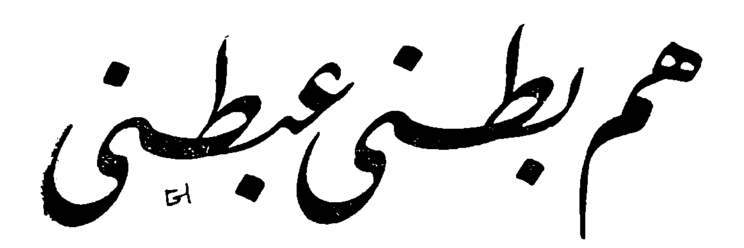
« ماملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه »

(حديث شريف)



للعارف بالله

الشيخ محمد الجنيهي

الشهير بالمسكين قدس الله سره ونور ضريحه

يطلب من

مكتبة الجندي

بسيدنا الحسين بمصر ت ٧٤٥١٨

دار الطباعة المحمدية - درب الاتراك بالأزهر بالقاهرة

إذا ما نجا الإنسانُ من شرِّ بطنه ِ فكلُّ أذًى يلقاهُ بعدُ يهونُ
وإن هو أرضاها وفاءً لأمرها تجاذَبهُ للمهلكاتِ جنونُ
فكلُّ بلاءٍ فى البرايا بلاؤُها وكلُّ شقاءٍ كان أو سيكونْ
ومن لم يطعها عاش واحدَ عصرِهِ وإنى لهــذا بالمفازِ ضمينُ
ومن كان إرضا البطن أكبرَ همه فقيمتهُ ما تحتوى وتصون

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة موجزة فى حياة المرحوم المبرور العارف بالله الشيخ محمد الجنبيهى
(قدس الله سره)

وإنما المرء حديث بعده   فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ولد المترجم له ، فى قرية تدعى « جنبواى » من قرى مركز « إيتاى البارود » من أعمال مديرية « البحيرة » من والدين كريمين صالحين ، كانا قدوة حسنة للناس فى التقوى والورع ، وسلامة الطوية ، وحب الخير ، فأبوه المرحوم العارف بالله الشيخ عبد النبي ابن حمزة ، ، وكان عمدة القرية طول حياته ، وأمه المرحومة السيدة فاطمة بنت سالم ، كان بيتهما معبداً ودار ضيافة ومناراً للعلم والدين ، وقد أنجبا أربعة أبناء المرحومين . الشيخ أحمد والشيخ محمد المترجم له والشيخ حمزة ، والشيخ عبد الوهاب ، وكانوا كلهم صالحين أتقياء ، نشئوا نشأة دينية بحتة ، وتلقوا علومهم فى الأزهر الشريف ، بعد أن حفظوا القرآن الكريم فى كتاب القرية ؛ وكان أوفرهم حظا منها ، المرحوم الشيخ محمد الجنبيهى ، فقد كان فذاً متضلعا متمكنا بز أقرانه ، إذ كل همه تحصيل العلم لذاته ؛ ديّناً ورعا متواضعا ، قوى الإيمان ، شديداً فى الحق ، لا يخشى فيه لومة لائم ، قضى رحمه الله أعواماً

كثيرة فى التعبد والخلوة فى زاوية بالبلد ، وكان أوّاباً بكاءً ، يقضى ليله قائماً مجدّاً فى استغفار ربه ومناجاته والبكاء والتذلل له والخشوع بين يديه ، فذاق حلاوة المناجاة وحلاوة القرب من الله ؛ ونال رضاه ومحبته ، وأجاب سؤله ، وعجل له أربع دعوات سأله إياها ، منها الإقامة فى مصر . وأن يرزقه الله تعالى ولداً صالحاً يكون قرة عين له ، وشجرة مظلة على أسرته وأهله وذويه ، فحقق الله سبحانه وتعالى كل رغباته ؛ ومنّ عليه بالإقامة فى مصر ؛ وبنجله المرحوم عبد العزيز محمد (باشا) وزير الأوقاف سابقاً الذى كان مصدر خير ، فملأ منه الدنيا . وكان المرحوم المترجم له ، محباً لأولياء الله وعباده الصالحين عاشقاً المتصوفين قرأ كتبهم ، وفقه حكمهم وطرائقهم . وقد شطر قصيدة مشهورة لسلطان العاشقين سيدى عمر بن الفارض ؛ وكان قد اختلى أياماً فى ضريحه وقد اشتغل بالخطابة عدة سنوات فى مسجد (المطهر) رضى الله عنه ، الواقع فى أول شارع (الصاغة) بالقاهرة ، فكان دائم البكاء يبكى المصلين لحسن أدائه ، وقوة إيمانه وإلقائه ، حيث كانت نصائحه تنبع من القلب لتصل إلى القلوب ، وقد فتح الله عليه بديوان كبير للخطب أسماه « إرشاد شوارد النفوس إلى رحمة مولانا الملك القدوس » وذيل هامشه بكتاب أسماه « متابعة الأسرار ومطالعة الأنوار فى التبرك بأوراد أقطاب من الأكابر الأخيار » ويليه نبذة من حكم صوفية ، وبعض كلمات فلسفية ، ثم اتبعه ديواناً آخر جليل ، أسماه « كتاب السراج الوهاج فى الدلالة على أشرف منهاج » ضمنه خطباً تدعو إليها ظروف الأحوال ، وكلها مواعظ نافعة ، ونصائح مفيدة

للناس فى أمور دينهم ودنياهم ، وقد كان رحمه الله ملهماً . وذلك بإقراره فى مطلع قصيدة له فى كتابه (العمل المبرور فى ردع أهل الغرور) حيث قال :

يا ملهمى من وراء القلب آرائى بسر رابطة تخفى عن الرائى

وقد عاش خمسة وثمانين عاما ، نهايتها سنة ١٩٢٧ م ، قضاها كلها فى العبادة والجهاد فى سبيل الله ، وإعلاء كلمته ، ونصرة دينه ، وفى النصح والإرشاد بقلمه وقلبه ، ومحاربة الفساد والإلحاد ومناهضة الملاحدة والمفسدين ، أعداء الأزهر وأعداء الدين ، الذين هم أضر عليه من المشركين والمبشرين ، لأنهم أدعياء دخلاء عليه . يطعنونه من الخلف ويتسمون بأسماء المسلمين وقد ألف فى ذلك أكثر من ثلاثين كتاباً ، طبعت مراراً وتكراراً ، وانتشرت وذاعت فى جميع الأقطار الإسلامية ولا يزال له ست مؤلفات لم تطبع بعد وهى :

١ - الجزء الثانى من رسالة الحبيب ودلالة الطبيب

٢ - رسالة النكبات المصرية والنزغات الزيغية يبينها محمد الجنبيهى المسكين لزعماء المهذبين والمتنورين

٣ - كتاب عجائب الأقدار ، وغرائب الاقتدار يبين ما علم منها لعوام المؤمنين محمد الجنبيهى المسكين

٤ - كتاب طهارة البحار من منتنات الجيف والأقذار : رسالة يسرها رب العالمين بلسان محمد الجنبيهى المسكين ، وقد كتب

عليها أزال الله عنه ربقة الأباق وألهمه فهم ما فى الآفاق من الآيات البينات والدلالات الواضحات ببركة أهل التحقيق من أكابر رجال الطريق .

٥ — كتاب بلايا السماع ومصائب الاطلاع ، يبينها للبسطاء ، محمد الجنبيهى المسكين .

٦ — كتاب الأسئلة السديدة والأجوبة المفيدة يطرحها محمد الجنبيهى المسكين بين يدى الأساتذة العصريين .

وكان قدس الله سره يقوم الليل متهجداً قائماً يناجى ربه باكيا ، ثم يقضى أول النهار فى المطالعة ، وتأليف كتبه ، وينزل بعد صلاة العصر إلى حديقة منزله ، فيتلوا أحزابه وأوراده ، وقد كان الشيخ محمد عبده . والشيخ عبد الكريم سليمان وهما من زملائه فى الأزهر الشريف يزورانه فى بيته فيجدانه مشتغلا بذكر الله تعالى ، وتشطير بعض القصائد الدينية المشهورة ، فمما نظمه ووجد بخطه بعد وفاته تشطير هذه الأبيات :

(دع المقادير تجرى فى أعنتها) لا توقف الفكر بين القيل والقال
واقطع نهارك بالتفويض مغتبطا (ولا تبيتن إلا خالى البال)
(ما بين غمضة عين وانتباهتها) كم من تصاريف أرزاق وآجال
وفى الدقائق دوارت الزمان بها (يغير الله من حال إلى حال)

وزار المرحوم العالم الجليل الأستاذ الشيخ عبد الفتاح وهيبة

الشرنوبى دار أسرة العارف بالله تعالى المرحوم الشيخ أحمد الفقى الجنبيهى بجنبواى (بحيرة) حوالى سنة ١٣١٥ ﻫ ووصف ما شاهده من حال أهل هذه الدار بالآتى : —

أتيت لحمزةٍ فوجدت أحمدْ فظلتُ مهللا وطفقتُ أحمد
نخضنا فى العلوم لكل فن كأن ديارهم يا قوم معهد
سمعتُ البعض بعدالنصف يتلو ويهتف بالدعاء وقد تهجَّدْ
وعند الفجر أذَّنَ خيرُ حبرٍ على سطح وأهل البيت سُجَّدْ
رجال فى الدجى لله قاموا كأن البيت مضيفة ومعبد
وجوه كالبدور وفى سخاء كحاتم طىٍّ أو هنَّ أجود
رحلت عن الكرام فشيعونى بوافر شكرهم والعود أحمد

رحم الله الجنبيهى ، فقد كان يتخذ القلم أداة لإرهاف المشاعر والأحاسيس ليسهل عليه من بعد ذلك أن يوجهها وجهته التى يريدها وبغيته التى يتمناها لمصلحة هذا الوطن العزيز ، مثل ما فعل فى كتيب صغير له ، إلا أنه عظيم الفائدة ، كبير النفع ، وهو كتاب : ﴿ هم بطنى عبطنى ﴾ التى شاءت القدرة الإلهية أن يظهر للوجود بعد نفاد طبعته الأولى بفضل تضافر الجهود المشكورة لمكتبة السيد محمد على الجندى ، ومحبى نشر التراث الدينى ، أمثال السيد الحاج أحمد محمد زكى جوهر ، الكتبى بالسودان حيث تعاهدا على إحياء

الكتب الدينية النادرة القيمة لأكابر العارفين والأولياء العاملين مما سيكون له إن شاء الله أثر محمود فى الذود عن الدين ، وسلامة الأرواح والقلوب فى هذا العصر الحديث الذى طغت عليه الماديات فهو أحوج ما يكون إلى العلاج بالروحانيات .

بدوى طه علام
المدرس بالمدارس الأميرية

بسم الله الرحمن الرحيم

تأمل ترى الأكوان عقد نظامها		تكوّن من أمرين إن كنتَ مبصرا
بطونٌ خفى كالسلك فانتظمت به		مظاهرُ أعيان الظهور كما ترى

جعل الله سبحانه وتعالى البطون أساساً لقواعد هذا الوجود الصورى وجعل مظاهر الظهور قوائم بنيانه الواهى الأوهن . فالبطون بغير ظهور لا يعرف والمظاهر بلا بطون لا تعرف ولا تتكيف . البطون أصل ثابت ، والظهور فرع نابت . البطون طريق لما تحدثه الغيوب التى ماويها إلا الحق تبارك وتعالى وحده لا شريك له ، والظهور مطايا مظاهر تلك الحوادث تسير بما تبرزه القدرة العلية إلى حيث يشاء الفعال لما يريد جل شأنه ، تقدست أسماؤه ولا إله غيره ولكن الذين اشتغلوا بما ظهر عنما بطن هم قوم فى شك مريب وأهل الزيغ والجدل فى ضلال بعيد :

إذا ماشهدت الداءَ يذهبه الدوا		وأن ارتباط الكون صيره طبّا
تحققت أن السر سار بحالة		يشاهدها فى المشر من عرف اللبّا
وأيقنت أن الكائنات بأسرها		يسيرها من ظل يدعى لها ربّا

تعمل العقاقير والأعشاب فى الحيوان ما لا قدرة له على الحصول عليه بسواها ولولا النباتات تغذيه لهلك . وهل كان ذلك إلا لمناسبات كونية ارتبطت بها الموجودات بعضها ببعض لا يعلم كيف كانت إلا مكون تلك الأكوان (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)

هذه مبادى سرحة فكرية وسياحة نظرية ماجاوز صاحبها فى الرحيل مقامه ولاقطع فى شقة السير لياليه وأيامه ولكن الأفكار متى تمطت مطايا التذكار ومدت آماق التبصر والاعتبار تجوب الفيافى والأقطار وتطوف القرى والأمصار بل تجمع أطراف الآفاق وتطوى أكناف السبع الطباق فى أقل من الزمن القليل والله يقول الحق وهو يهدى السبيل وكان الله على كل شيء مقتدرا .

﴿ الصيد كل الصيد فى جوف الفرا ﴾

كلامنا الآن على الحيوان ولكن الإنسان المجهول هو محط النظر يرى المتأمل البصير الإنسان بحراً لاساحل له ولجة ليس لها قرار وهاوية يستهلك فيها الغالب من العوالم السفلية ثم تهلك ورائها وليس لنا فى الكلام على عودته بعد ذلك الاستهلاك مجال الآن بحال من الأحوال ولكنا مؤمنون بقول الحكيم العليم وهو أصدق القائلين (كما بدأكم تعودون) وقوله (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) جواباً للإنسان الذى كان خصيما لربه ونسى خلقه ثم قال (من يحيي العظام وهى رميم) فمن شك فى عودة الإنسان كرة أخرى لمشهد الذى كان عليه فى دنياه فيسئل عنه بين يدى ربه فهو الخاسر الضال ولقد وقفنا فى هذا المجال على جادة الطريق التى وصفها الله لنبيه بقوله (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) ونسأل الله تبارك وتعالى حسن سلوكها فإن هذا المجال خطر إلا على من علمه ربه علم اليقين من أهل الخشية والأدب المبرؤون من الزندقة والذبذبة

كثير الأباق أطلت الجفا وحول الديار دواماً تطوف
فهلا خجلت وهلا استحيت وهلا ندمت وأنت المؤوف
على ما اقترفت وما قد جنيت وحيث سلكت السبيل المخوف
أتعلم ربا سوى من سما وقال سلونى فإنى رؤوف
فدونك فاسلك سبيل المتاب ونادى الحليم الكريم العطوف
وإلا فمزق حبال الرجا ولج فى العصاة وساوى الصفوف
فمثلك كم من كلاب عصوا ومنهم مئين ومنهم ألوف
وهل للجحيم سوى من طغى وللأضحياء يغذّى الخروف

سبحان فالق الحب والنوى مازالت ولا تزال تتجدد أنواع النباتات بتجدد الفصول والأعوام حفظاً لحياة الإنسان وكذلك الثمار على اختلاف أنواعها والمرعى الذى امتن الله به فى قوله (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدّر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى) لتتغذى به الانعام فيطيب للانسان تناول لحومها ويتحصل على مافيها من المنافع التى ذكرها الله فى قوله (وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون) ثم الطير والوحش وعالم البحار كل ذلك مقرُّ غالبه جوف الإنسان من آكل ومأكول وحامل ومحمول لأن الله سخر له كل مابين السماء والأرض ثم جعلها ذلولا له وسخر له الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب ولو جمعنا مايستهلك فى جوف الفرد الواحد من أفراد الإنسان مما ذكرنا من مبدإ وجوده إلى نهاية عمره وجعلناه فى كفة الميزان فى مقابلة الانسا لكان كلاشىء بالنسبة لما وضع فى مقابلته وماندرى أين

ذهبت هذه الموجودات فسبحان القادر الحكيم المدبر العليم (قتل الإنسان ما أكفره).

يطلق المتبصر عنان فكره فى العوالم الكونية ليعلم لذلك التسخير مغرب شروق أو مشرق غروب فيتحقق حاله ومآله من أين وإلى أين فلا يرى إلا ظهور مظاهر تولد عن بطون فيه سرٌّ مصون وذلك السر أمر غيبى قام به كل ظاهر وباطن لا يعلم كيف هو إلا من هو الظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم وما ملق القول إلا لقوم يعقلون وما علينا إذا لم تفهم البقر.

ما كان ذلك التسخير إلا تكريماً وتفضيلا كما قال الله تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) وأبت حكمة اختلاف الاستعدادات والقوابل إلا حجب المحجوبين عن إدراك هذا التكريم بوجه من وجوه التبصر والتذكار ثم كشفت عن بصائر أهل الاختصاص البراقع والأستار فقال قائلهم لمن بيده ملكوت كل شىء:

أرانى آلات وأنت محركى — أنا قلم والإقتدار الأصابع

وترنم آخر بقول القائل:

مولاه قلبى من الست الجهات متى — يحظى بتدبير وصل منك مولاك

وقال من أقامه منهم مولاه فى الأسباب:

نظرت فلم أنظر سواك أحبه — ولولاك ما طاب الهوى للذى يهوى

وذلك عندما شهدوا الحجب التى حالت بين بصائر أهل الدعوى وبين ذلك السر الذى ما غاب عنهم طرفة عين ولولاه لهلكوا وما هو إلا

الوجه الذى أشار اليه الحق سبحانه وتعالى بقوله (كل شىء هالك إلا وجهه) وقد وصفه الإمام ابن الفارض بقوله :

يقولون لى صفها فأنت بوصفها   جدير أجل عندى بأوصافها علم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى   ونور ولا نار وروح ولا جسم

واستهتر ذلك الرجل الكامل واستغرق ذكراً وثناءً وتخلى عن الاغيار وتحلى بحمل الاسرار فكاشفه الحبيب المحبوب بشىء من أسرار الغيوب فرأى نفسه على ماهى عليه من الذل والافتقار والعجز والضعف والانكسار فعلم أنها كلا شىء وإن الشىء الذى يقال له شىء هو الذى قام به كل شىء فوقف فى موقف الذل تحت ميازيب الرحمات متعرضاً كما أمره نبيه للنفحات وإذا بقائل يقول لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فنظر فما وجد جبلا إلا بشريته وتحقق أنها إذا زالت زال ذلك التسويف ولا تزول إلا بالتجلى فنادى رب إنى لما انزلت إلىّ من خير فقير فظهر النور وانكشف المستور وتدكدك الجبل وصعق المنادى من شدة الوجل فقيل له لاتخف نجوت من القوم الظالمين الذين هم عوالم بشريته من شهوات وخطرات وأوطار وأفكار وموانع وأغيار فسبحان من لا يثبت لتجلى عظمته شىء يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

خرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً لأنه تولد عن عماء والعماء لاعلم معه ونريد بالعماء الخفاء وأظنه هو المعنى المراد بقوله صلى الله عليه وسلم كان فى عماء جواباً لمن سأله أين كان الله قبل خلق الخلق إذ الشمس بالنسبة للاعمى فى عماء ولو كان للموجودات فى وجودها الثبوتى الازلى أبصاراً

وبصائر لعلمت الحق على ما هو عليه ولكنه كان بالنسبة لها فى عماء أى خفاء كما أشار إلى ذلك الحديث القدسى كنت كنزاً مخيفاً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى وماظهرت المخلوقات إلا من ذلك العمى فقام أعماهم يقول كيف إن العمى يوجد موجوداً فسبحان من احتجب بشدة ظهوره وترك الضال حائراً فى ظلمات غروره إن ربى على كل شىء قدير وما خرج الإنسان من بطن أمه إلا والتسخير يصحبه حتى فى ارتخاء الأعصاب والعروق التى تفتحت له به المنافذ التى خرج منها وقد كانت أضيق من السجن المظلم وما زالت القدرة العلية بتعطفاتها الرحموتية تسخر له ثدياً يغذيه وأبداناً تحمله وقلوباً ترحمه وتدفع عنه مضاراً لا تغفل عنه تلك القدرة طرفة عين حتى ترعرع شبابه وفرح به ذووه وأحبابه فوجد نفسه على عرش ذلك الظهور والتسخير مستوياً حيث المسخرات التى ذكرناها حافة حوله يناديه لسان حالها بقولة قوم بلقيس (نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين) ثم لما لم يجد مانعاً يحوجه إلى البحث عن منازع ينازعه أو مشارك يشاركه استبد برأيه واستقل باختياره وعمله غافلا عنها أبصره الذين فتح الله أسماعهم وأبصارهم ففاجأه نظراؤه يجاذبونه ذلك الاستواء غير عالمين بأن لكل موجود رتبة وجودية لا شريك له فيها مختصة تلك الرتبة بشئون ودواعى وبواعث وأعمال وحظوظ مقسومة كل ذلك بقدر معلوم عند من عنده خزائن كل شىء ولما كان ذلك التجاذب عن جهل بغير حق كان من الإنسان ماتراه الأعين وتسمعه الآذان من المشاجرات والطغيان لحكمة يعلمها العليم الخبير إذ لو كان الناس جميعاً من أرباب البصائر النيرة

لما تنازع اثنان على شيء واحد ولما طلب طالب غير ما قسم له ولما تخاصم المتخاصمون ولما جاء أهل الدعوى بزور وبهتان وإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ،

علم الحق تبارك وتعالى الذى بيده ملكوت كل شيء ما علمه من الإنسان قبل وجوده من الشئون التى لا بد من وجودها منه ليكون النظام تاماً وكان من أوصافه أنه ظلوم جهول لجعله آخر الاجناس الكلية وجوداً وظهوراً بعد ما هيأ له ما يحتاج إليه من هذا الملك الكبير كما تهيأ المساكن لساكنيها ليعلم أنه ليس هو المالك لها ولا صاحب الامر والنهى فيها لانه لا قدرة له على تدبير نظامها وليعلم أنه صغير بالنسبة لما يراه منها كما قال الله تعالى (أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) إلى آخر السورة ثم لم يشهده خلق السموات والارض ولا خلق نفسه ليتمكن من الطيش وأعنى من هو من الفريق الذى كان استعداد أفراده للعداوة والمخاصمة فيفترضا لهم بظواهر المظاهر فيتوهم أنها هكذا هى كانت الموجودات من طبعها موجودة على حالها الذى رآه وهكذا هو أخرجته الطبيعة أو القوة الفعالة أو أى وهم يتصوره المتوهمون الذين لم يكونوا على بينة من ربهم فتقودهم شقوتهم إلى كل طريق نهى المرشدون عن سلوكها وليستدل أهل الفريق الآخر بالصنعة على الصانع بالنور الذى تنشرح به صدورهم للنظر والاستدلال فتحكم على كل فريق قابليته واستعداده بسلوك الطريق التى توصله إلى مقره كما بينا ذلك فى كتابنا المسمى نشر الاسرار البشرية من طوايا الاخلاق المحمدية فليراجع والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الإله المدبر الحكيم ملأ الآفاق صنعاً جليلاً وبدائع حكم ترشد الضال وتهدى الحائر إذا تنوّر ولقد جعل الجوّ مجالا لحوادث تبهر العقول وتدهش الأفكار وأودع الإنسان من عجائب الخلق والخلق مايتبصر فيه من تبصر ويتذكر فيه من تذكر ولكنه أشغل المحجوبين بألعاب دنياهم وأنساهم أنفسهم فما عرفوها على ماهى عليه بل ظنوا أن الدار دارهم وأنهم قادرون عليها وصاحب النظر منهم يزعم أنه ذو قوة موهوبة له وإرادة واختيار ليتصرف فى الموجودات كما يشاء وما كان ذلك منه إلا لجهله بنفسه وغلبة الطيش والغرور عليه إذ لو كان بصيراً أو تأمل حال نفسه لرآها كباقى المسخرات فى جميع الشئون ولعلم أنه لم يكن إلا كعبد لمالك أعطاه سيده الرئاسة على بعض العبيد وأعانه على ذلك بأن أباح له أن يأمر وينهى بما يُسرّه اليه ليس إلا فإن مكر به وسع له النطاق حتى يطغى وإن اختاره قيده بما يمنعه عن الانحراف والميل عناية منه به فما ضر ذلك العبد إلا دعواه أنه مخير لا مسير وأنه قادر على إصلاح أحوال المرؤوسين له فيكون سؤاله عند المؤاخذة عن حقيقة هذه الدعوى هكذا هو حال الناس مع ربهم ولما كانت الدعوى هى مغناطيس البلايا والابتلاء وصاحبها هو الخصيم المبين ثم إن الخصم المجادل إذا جاء يوم القيامة يجادل عن نفسه لاينفعه إلا الحجج البالغة والبراهين الدامغة فلذلك خلق الله من هذا النوع أفراداً صلحت استعداداتهم وقوابلهم لقبول القيام بأداء حقوق الأمانة التى حملها الإنسان بعد اشفاق السموات والأرض منها وما هى إلا الحقيقة التى بيناها فى الكتاب الذى سبق ذكره عند تعريف حقيقة الإنسانية ثم أرسلهم إلى من شاء من ذلك النوع بعدما علمهم حقيقة ما أرسلوا

به وقواهم بتوفيقه وإرشاده وأيدهم بقوة سلطانه الذى لا يقاوم ثم حجر عليهم متابعة الهوى ليحكموا بين الناس بالحق وجعل لهم ورثة أمناء أصفياء أبرياء ليقوموا بتبليغ ماجاءت به الرسل إلى من لم تبلغهم الدعوة وماذلك إلا لتقوم حجة الله على أهل الدعوى ومرادنا بهم كل من حاد عن طريق الرسالة إما بالجحود والإنكار وإما بالجدل والعناد والإصرار فافترق الناس أبداً بعد ما كانوا أمة واحدة فى اتباع الهوى غير مقيدين كالأنعام فلما قيدوا بالشرائع اختلفت مشاربهم ومآربهم وتفرقت بهم الاهواء وكل يظن أنه الناجى وما نجا منهم إلا من تابعوا الرسل قدماً بقدم أوورثتهم وما قلنا أو ورثتهم إلا لأن من الورثة من أبدع بدعاً حساناً اتخذها وصلة لتثبيت العوام على الدين إذ المداوى يداوى كل مريض بما يلائم طبعه وجسمه فمن رزق الإيمان الذى معناه سلامة القلب من الأغراض والإنكار وميله إلى التصديق بذلك فهو ناج من الناجين ومن تابع هواه ووقف فى مقام الاعتراض والجدل كان من الهالكين لأن طريق الإيمان لا تقبل ظلمة الجحود والجدل ولذلك سار التابعون فى طريق السلامة والاستسلام متابعين فقابلهم الحق جل شأنه ببشاشة القبول والرضوان وإن كان فيهم من لم يحسن العمل على الوجه المطلوب ولكنه سليم القلب طاهر العقيدة من الشك والريب والضلال الذى ترك القوم هائمين فى تيه اللسانة جائلين فى ظلمات الجدل والعماء المهلك فلما وجهوا وجوههم إلى الوجه الذى لا يهلك ولا يفنى وجه الحق تبارك وتعالى لكل من أفرادهم الخطاب التى خاطب به نبيه بقوله (قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) فقيدوا قلوبهم وألسنتهم بقيود الرحمة التى أنزلها الله لهم على

لسان رسوله وانطلقت ألسنة اللاهين واللاعبين من أهل الدعوى داعين إلى الأشياء الهالكة كما يشاهد المتأمل البصير رسوم ذلك فى صفحات الجرائد فلا تسمع إلا صواعق جدل ولسانه صيرت قلوب الضعفاء صرعى صيحة الزيغ والزندقة فسبحان من أودع فى كل قلب ما أشغله وزين لكل أمة عملهم ولقد بينا حال محررى الجرائد فى كتاب كشف الإزار عن مشوهات الأوزار فليراجع .

وضع الإنسان الجهول يديه على خاصرته وأمال عمامته على مقدم رأسه وقام يتخطى خطوات وراء شيطانه وهواه معجباً بنفسه مختالا فخوراً برتبته الوجودية التى هو مسخر لشؤونها كما تسخر الحمير والبغال لمشاق أعمالها فناداه الحق سبحانه وتعالى على ألسنة الرسل بقوله (إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى) وقد كان ذلك الجهول يرى نفسه ضعيفاً من وجه وقوياً من وجه لأن ضعفه عن تأييد دعوى الاقتدار بأدنى دليل أو برهان ظاهر عليه له ولغيره إذ لا قدرة له على أن يزيد بصره قوة أو سمعه أو أى حاسة من حواسه وجارحة من جوارحه غير المدد المقدر له من قبل الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا وليس بمالك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ثم هو قوى من وجه لأنه محل لظهور الأعمال التى تبرزها القدرة العلية على يديه فى كل حال وقول وعمل فلمناسبة ضعفه أذعن بالألوهية لمن بيده ملكوت كل شىء ولاغتراره بالقوة التى لم يدر هى من أين وإلى أين ولم يشعر بقيامها به وما ميز نفسه أهو حامل أو محمول ما عبد ربه ولا أقام الصلاة لذكره بل تخير لنفسه سبيلا

سلكها كما يهوى ظاناً أنه بذلك يرضى ربه وتقدس الحق تبارك وتعالى عن أن يرضى عن من لم يتابع الرسل فى القول والحال والعمل ثم داخله الريب فى أمر الساعة فلم يقدر على جحودها لما يشاهده من موت ذويه وأقرانه والبراهين التى أقامها الحق على صدق وعده ووعيده ولعدم اقتداره على تكذيب ربه تبارك وتعالى ولكنه استبطأ قيامها وزعم أن الأمد مديد والوقت بعيد والخراب فى مرتبة المحال وليس لنا الآن فى هذه الخرافات مجال ثم ناداه الحق مرة أخرى يأمره بالصوم ليرتدع عن متابعة هواه ويستكين لأوامر مولاه إذا ترفعت نفسه عن تعاطى الشهوات ثم والى عليه التهديد وزجر الوعيد فإذا هو على حاله ظاناً أن الصوم لا ينبغى إلا للاجلاف الذين ما تهذبت نفوسهم وأما هو فانه قداسة كمل مزايا التهذيب حيث لم يدر أن أدنى مخالفة تصدر من العبد تدل على أنه غير مهذب إذ الإنسان كلما تكامل أدبه تباعد عن المخالفة وهش إلى أداء ما يؤمر به من قبل سيده فقام الحق يذكره بحال من كان قبله من الأمم الذين هلكوا بأسباب صغيرة ليعلم أن العزة الإلهية والحضرة العلية لا تقبل إلا أهل الاذواق والآداب الذين لا تفوتهم الدقائق وما زال يخاطبه بما يشعر بالتوبيخ وهو لا إحساس له وكم قال لمن هذا حالهم أفلا تعقلون أفلا تبصرون وهم لا يفقهون لظنهم أن الخطاب موجه لعبدة الاوثان ليس الا وما هو إلا خطاب عام ليعلم كل عبد حاله ومنزلته ويتخذ لنفسه سلماً يرقى به إلى درجة الفوز مع الفائزين وما كان الخطاب عاماً إلا ليعلم المدعى العقل أنه ليس بعاقل ومدعى الاختيار والقدرة كذلك كأن الحق تبارك وتعالى يقول له إن كنت عاقلا قادراً مختاراً فاسلك سبيل النجاة التى

أوضحتها لك وماسلكها إلا الضعفاء المتوكلون الذين تسخر منهم وذلك بمعونتي فأين عقلك وأين قدرتك واختيارك وأن الذين ازدريتهم هم أهل المكانة والشرف لدي كل ذلك ومعالم الارض وكل ماتقرب منه ذلك المفتون بمقته وهو لاهٍ ولاعب يضحك ملأ فيه حيث هو مع الصم البكم الذين لايعقلون .

زجر الحق تبارك وتعالى أهل الدعوى بما تواترت به الآيات من تعداد النعم والرحمات التي قامت بها قوائم هذا الوجود كقوله (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) وأخرى (أفرأيتم ماتمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) والماء والنار وغير ذلك ومن البراهين كقوله (أمن هذا الذي يرزقكم ان أمسك رزقه) وماأراد بالرزق مجرد الغذا ولكنه أراد النعم الباطنة والظاهرة التي لو فقد الإنسان إحداها لهلك كل ذلك والجحود والعمى غالب على ذلك الجهول الذي ماأحس إلا بما تلمس وما كان ذلك إلا لحكم سابقة الاستعداد على لاحقة الامدادات والاعتيادات إن ربي على كل شيء قدير .

سئل جهول من أهل الدعوى لماذا كنت أشقى الناس حالا ومآلا أما حالا فلأنك تجهد نفسك في تدبير مالا تملكه وتطمع في إصلاح مستقبل وقتٍ لاتدري ما الله صانع فيه وتلوم غيرك وأنت أشقى ملوم وتعيب الناس وقد ملئت عيوبا من حيث لاتشعر وتدعي غير أوصافك التي خلقك الله عليها التي هي العجز والضعف ، وأما مآلك فلأنك ماقدمت بينك وبين ربك مودة خصوصية تكون لك عنده شفيعاً بل زعمت أنك تصلح ما أفسد وتغني ماأفقر وتعز من أذله وقد سارت بك مطايا المكر والاستدراج

إلى هاوية من المقت لاقرار لها إذ جهلت أن كل ماتراه فى الكون من الاعمال والأحوال والاقوال ماهو إلا مدبر محكم مرتبط بحكم خفية لايعقلها إلا العالمون إذاً فتكون يوم القيامة رهين هذه البلايا التى أحاطت بك من جميع جهاتك وأنت لاتشعر .

فما كان جواب ذلك المفتون إلا أن قال (همّ بطى عبطى) .

بيان ذلك أن الله تبارك وتعالى بصفته الإله الاعظم والالوهية تستدعى مألوهاً ليكون مهبط غيوث الفضل وصواعق العدل وكان الإنسان هو صاحب ذلك الاستعداد لانه الخلق الجامع والنمت الواسع الذى تجمعت موادُّ أجزائه من سائر أجزاء الارض التى هى امه فاختلفت استعدادات أفراده وقوابلهم كما اختلفت أنواع النباتات فاقتضت الحكمة الإلهية أن تكون البواعث غيبية والامدادات لرحموتية مختلفة اختلافاً يوافق اختلاف الاستعدادات والقوابل فلا تأتى تلك البواعث والامدادات إلا من طريق البطون كما ذكرنا فى مبدإ الكلام .

ولما كان استعداد ذلك المسرور لايقبل الاسرار ... ظلمة قابليته الكثيفة بتوارد الانوار لم تتوجه اليه الامدادات الروحية ... تطرق ساحة مخيلته الاسرار الملكوتية بل كانت توجهات بواعثه ... إلى معالم الاغيار وعوارض المكابرة والاصرار فانبعثت غرائزه ... لى الاهتمام بشئون حاله غافلا عن عواقب مآله ومراده من الحال هنا العيشة الدنيوية وما تحتاج اليه وتسلطت عليه الموانع والقواطع الباطنية فى جميع أعماله وأحواله فيشتهى لذيذ المطاعم وشهى الملبس وزخرفة المسكن ولايكون ذلك إلا

إذا أجهد نفسه فى السعى فى تحصيله لأن أهل المجاهدات انقسموا فى الازل إلى أقسام وقد جمعهم الحديث القدسى فى قسمين بقوله : يادنيا من خدمنى فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه فتفرعت مجاهداتهم إلى مالا نهاية له ولكن أهل الدنيا تفرقت بهم الاهواء فاختلفت مقاصدهم ومآربهم ، وأما أهل الآخرة فما توجهت هممهم إلا إلى مقصد واحد وهى مكانة القرب من حبيب المحبين وأنيس المنقطعين وجليس الذاكرين وإن اختلفت شئون المجاهدات باختلاف أحوال همم المجاهدين وتلك المجاهدات هى التى سموها طرقاً وقسموها مابين شاذلية وخلوتية ونقشبندية وغير ذلك نسبة لاهل الاجتهاد الذين وصلوا مقام التثبيت من طريق الوراثة المحمدية ومن أراد أن يعلم حالهم فيطالع أقوالهم وأعمالهم فى مآلفاتهم ولاحاجة لذكر أحوال أهل الدنيا فى مجاهداتهم فانها لاتغيب عن أعين الناظرين ومسامع السامعين ولما أشغلتهم تلك المجاهدات عن أداء مافرضه الله عليهم قصرت هممهم على إرضاء فروجهم وبطونهم فتكالبوا على تلك الشهوات التى ماشرع الصوم إلا للتحفظ منها إذ هى أكبر قاطع وأمنع مانع ولذلك قال عليه الصلاة والسلام ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه والكلام فى ذلك واسع المجال فلنقتصر خوف الملال والله يتولى الصالحين .

إن كل مجاهد من أولئك المجاهدين لذو الإمداد الإلهى وصاحب نظر وكرى بدليل قوله تعالى (كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) ولكن الفارق بين الفريقين أن المجاهد فى دنياه يفرح لقدوم موعد الربح إن كان تاجراً وموسم الحصاد إن كان زارعاً وإدراك المطلوب إن كان مفتوناً بأى أرب

من المآرب الشهوانية غير عالم بأن قرب ذلك الموعد هو عين قرب منيته ويتعاقب عليه الجديدان وهو لاه فى سكرات اجتهاده وغفلته لا يفيق إلا عند ضجعة الموت وقلما تدركه اليقظة إلا بعد الموت بعد ما خسر الدنيا والآخرة والمجاهد فى آخرته يزعجه تعاقب الليل والنهار ويحزنه فوات وقت من أوقاته هملاً وقد فتح الله سمعه وبصره بمفاتيح التذكار والتبصرة فيحيط به الحزن إذا نظر إلى ما يسمونه الساعة إذ يجد أن عمره قد فات منه جزء وافر فان الدقيقة فما فوقها جزء من العمر حتى إذا ما أدركه الليل بظلمته ووحشته تذكر ظلمة القبر ووحشته فقام يبكى قانتاً لربه ساجداً أو قائماً ينادى (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) إلى آخر الآيات . والمجاهد الاول مكبل فى قيود شهواته سابحا فى لجج غفلاته يقطع الليل مجونا والنهار مفتونا وما ربك بظلام للعبيد .

﴿ زيادة إيضاح بمثل معهود ﴾

اجتمع رجلان عند راقصة أحدهما من أهل الجد والآخر من إخوان المجون والهزل فما تمكن بصر ذلك المفتون منها ارتج من أرداف تلك الراقصة حتى أحاط بمخيلته الجنون واضطرب حاله وأخذت شهواته تجاذبه جسمه ليترامى على ذلك الكفل الذى قال فيه قائلهم :

لها ردف تعلق فى ضعيف   وذاك الردف لى ولها ظلوم
فيقلقنى إذا فكرتُ فيه   ويقعدها إذا همت تقوم

فما تمالك نفسه حتى خسر ماله وعقله فى أيام قلائل طيشا وغرورا كما

تراه من شبان هذا الزمن المفتونين وأما ذلك الرجل النزيه الكامل نقد دهش عجباً من صنع القدرة العلية ونفوذ الأقدار السماوية التى تركت ذات ذاك الجمال مسلوبة الحياء والأدب فتهتكت هذا التهتك الذى جلب لها ولذويها عاراً لا يمحوه تعاقب الأعوام ثم نظر الى هؤلاء المفتونين الذين افتتنوا باهتزاز خزانة القاذورات المنتنة فتذكر قوله صلى الله عليه وسلم إذا أراد الله نفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم فأخذ منه الخوف من الله مأخذاً عظيما ألجأه إلى الفرار والبكاء فشتان ما بين حبيب مقبول وعدو بقيود الشهوات وأغلال المقت مكبل ومغلول (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون).

خرج ابن آدم من بطن أمه مستويا على عرش رتبته الوجودية التى لاشريك له فيها بمعنى أنه لا يشبه ذاته ذوات ولا يستوى بأخلاقه أخلاق ولا صفات وكذلك الشؤون إذ لكل امرىء منهم شأن يغنيه فلا تجد فى نسل آدم من مبدإ الوجود إلى مالانهاية له إلى القيامة متشابهين فى صورة واحدة من كل الوجوه ولا متساويين فى الأخلاق والصفات من كل الوجوه (ذلك تقدير العزيز العليم) ولذلك تفاضلت الرسل وتسابقت عمال الآخرة وعمال الدنيا على حسب ما قدر لهم من شئون رتبهم الوجودية فترى كل طفل على فطرة خاصة واستعداد خاص وقبول خاص وذلك لكمال الابداع النظامى الذى يستحيل أن ينقصه شىء لا من شئون النقص ولا من شئون الكمال ويسمى النقص لهواً ولعبا وأطلق على الكمال لفظ الجد ليشمل كل ساع فى مطلب تلهى به عن غيره فتقوى شوكة الافتنان حتى لا يعجز عامل عن الاستدلال على صحة عمله

فيدب فى قلبه دبيب الغرور والافتتان من حيث لا يشعر ولكن حوزة الكمال ليست إلا فى نهاية طريق المجاهدين الذين هم أهل الجد والعمل المشروع إذاً فمدعى الكمال من غير هذا الطريق مفتون .

مثاله اجتمع رجلان من أهل الجد أحدهما من محررى الجرائد والآخر من سكان الخلوات المسجدية الأول لا دين له والثانى مؤمن كامل فكان الاول مستريحاً من قيود التكليف بالأوامر وسجن المناهى وانما فى جنة الاطلاق التى أشار إليها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر وما شبهها بالجنة إلا لأنها أخرجته من قيود التكاليف وأما الثانى فهو مقيد بقيود شرعية وآداب دينية لا يمكنه الانفكاك عنها بحال من الأحوال حتى يلقى ربه فيدخله جنته وأفنى صاحب الجريدة عمره فى إصلاح أمته على زعمه وكان كلما سد خرقا انفتحت منه خروق كما قال القائل :

كم أداوى القلب قلت حيلتى   كلما داويت جرحا سال جرح

وما أعجزه عن سد تلك الخروق إلا جهله بما تسد به الخروق فى الأمة وكيف كان اتساعها وكيف يكون سدها لأن هذا أمر لا يكون إلا لله الذى هو مالك أزمة القلوب فالمصلح الذى لم يأذن بالإصلاح من طريق شرعية يكون هو المفسد الذى يكون إفساده أكثر من إصلاحه والمصلحون الآن على زعمهم بعضا من الشئون الدنيوية ولكنهم أفسدوا عمارة الآخرة التى هى الدار الحيوان لو كانوا يعلمون .

قام ذلك الأول يطلب الجاه والمال والافتخار بقوله وعمله فأجهد نفسه فى ذلك لتسلط البواعث النفسية عليه واستفزازه إلى تلك المهالك ببعض من

عوامل المكر والاستدراج الإلهى كانطلاق ألسنة المحجوبين بالمدح والثناء عليه فى أعماله وأقواله ليأخذ بمخنقة الغرور إلى حيث يشاء الله ثم طاش عقله فهجر كل المناسك الدينية وقطع آماد عمره فى ذلك المطلب فلما جاءه أجله وهو غافل ورأى ملائكة العذاب نصب عينيه هم بأن يصلح ما بينه وبينهم لتتحول حالة الغضب والانتقام منهم إلى حالة الرحمة فناداه لسان حاله وهم يسخرون منه :

هلكت لعمرك فيما أدعيت ... فهلا استرحت وكنت الخمول
تزاحم ربك فى ملكه ... وأنت الضعيف وهذا فضول
فليتك لما دهاك العمى ... تمسكت فى الحال بحبل الرسول
ولكن سلكت سبيل الهوى ... فأضجعت للذبح كباقى عجول

فلقى الله وهو عليه غضبان. والآخر اجتهد فى أداء ما عليه من الواجبات الشرعية وأزادها نفلا أوجبه على نفسه ثم لازم خلوته التى هى اعتزال الخلق بقلبه حتى وإن لازموه وأحدقوا به من كل جهاته فكان معهم بالقالب ولكن قلبه مع ربه بمعنى أنه يراهم كل شىء ان واصلوا أو قطعوا أعطوا أو منعوا صادقوا أو عادوا العلمه علم اليقين الذى لا تذهب به الشدائد أن مقلب القلوب واحد يميلها كيفما يريد وأنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السما وهو الذى يقيم العباد فيما أراد لا راد لقضائه ولا دافع لبلائه وهو فى ذلك متمسك بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم معترفاً له بالفضل شاكراً له عملا بالحديث القدسى عبدى لم تشكرنى إذا لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه وليست هذه النعمة المعروفة ألا لا نعمة الإيمان التى امتنّ الله على عباده فى القرآن بها فى قوله (وأتممت عليكم

نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) وما أراد الله تعالى بالإسلام هنا الحضارة والتمدن ولكن أراد التفويض والاستسلام فى متابعة رسوله قدماً بقدم وما طلب ذلك الرجل دنياه إلا بالوجه الشرعى وما تناول أرزاقه إلا من يد ربه متجنباً كل هزل ومجون وكل زخرفة فى أقوال أو أحوال يتخللها الجنون حتى إذا آلت شمس أنواره إلى غروبها وأرادت روحانية بشريته التلاقى بمطلوبها ومحبوبها شاهد ممن حضره من الملائكة عند الاحتضار سرور البشارة وأيقن بالربح فيما اشتغل به من التجارة فانتقل من الضيق إلى السعة واستصحب عمله الصالح إلى القبر معه أولئك هم أهل الجد والكمال وهم الذين عناهم الله بقوله (من المؤمنين رجال) ذلك حكمت عليه بطنه التى لا تعصى جنودها البواعث الغيبية وهذا كان يطالبها بإقامة البرهان على صحة ما تطلبه منه فى كل قضية فكانت كلما طلبت شهوة أجملت فى الطلب ففازا هى وهو بحسن المآب والمنقلب

رأى ذلك الرجل النزيه نفسه بعين الإزدراء والمقت فأبصر عيوبها وتحرز من شرورها فكان كلما أكمت عملا صالحاً توهم نقصه وقام عليها بالملام والزجر فهى لا تقدم على شىء حتى تزنه بالموازين التى تعلم أنه يزن ذلك العمل بها عليها وما هى إلا الموازين الشرعية فما زال على ذلك المنهج القويم حتى رقى بها إلى مقام الشرف الأعلى وترفعت عن كل نقص دنيوى وخلصت رغباتها ومقاصدها سالمة من كل دنائة وريبة فلما تفرغ قلبه من تلك الشواغل ملأه الحق أسراراً وأنواراً فرأى الدنيا بالعين التى رآها بها النبى ﷺ التى يعرب عنها قوله لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح

بعوضة ماسقى الكافر منها جرعة ماء ووقاهُ من تلك الخبائث والأقذار القاهر القادر الذى نجا إبراهيم من النار .

وأما ذلك الذى حكمت عليه بطنه فكان كلما قصد مطلباً ثم أدركه أعجب بنفسه زهوًا وازدرى من ورائه من الناجين سبيله فيتركه ويقصد مطلباً أعلى منه طوع البواعث التى تسوقه إلى تلك المطالب ليؤدى واجبات الشؤون التى أراد الحق اجراءها على يديه فإما توصيل أرزاق لأهلها وإما إضلال قوم مهتدين وإما وإما إلى مالا نهاية له حيث صلح استعداده وقبلت قابليته وتلك البواعث تتركه يتحمل المشاق والأتعاب على غير فكر صائب ولا تراه إلا شاكياً من الدنيا وأهلها ومن الزمن وبنيه حيث لم يدر من هو الذى يدير حركة الزمن وأهله على هذا الصراط المستقيم ولو تأمل هذا المسكين حاله ببصر أرباب البصائر لرأى نفسه مسخراً لما يؤول به إلى شر مآل ومصير وهو مع هذا كله يدعى الكمال ولكن الكمال من وراء ظهره يناديه ولا يسمع .

نادى الكمال فقام النقص يزجره	إذ غالب القوم أهلوه ومعشرهُ
وصاح شاكٍ فما لباه ذوا أدب	ولا تحرك للنجدات ناصرهُ
وكان بالبعض مغروراً فنبهه	من حالهم كل شين ظلّ ينظرهُ
صغى لزخرف قول من أكابرهم	فظن فى الفعل أعمالا تناظرهُ
وشاقه أن يرى منهم أخا ثقة	عدلا يؤاخيه يوماً أو يوازرهُ
فما رأى غير قوم لاخلاق لهم	قالوا سئمناك فارتدت بوادرهُ
ليس الكمال اطلاعا يستعير به	أهلوه منها دهى الشيطان أكثرهُ

ليس الكمال كلاماً طوع ذبذبة ... يضرّ بالدين والتقوى مسطره
ليس الكمال عبارات تعبر عن ... حال شريف ولكن لا تباشره
بل الكمال وقار زانه ثقة ... بالله فى كل مقضىّ يدبره
والسير خلف الذى مذجاء يرشدنا ... سرّ البرية مسماه ومخبره
بالذكر جاء وما فى الذكر داعية ... تدعو لدنياك يامن لست أذكره
خوف التلوّث إذ شأن القذارة أن ... إن خالطت ماء طهر لا تطهره
جاء الكتاب بأعمال لها حكم ... إن ظلّ يعملها الأعمى تبصره
منها الصلاة ومنها الصوم هل سقطت ... عنك الصلاة لعذر أنت ذاكره
صام الأفاضل شهر الصوم وانسكبت
دموعهم لشهود لست تحضره
وأنت ساه ولاه غير مرتكب ... إلا الذى كاتب الأوزار يحصره
أطعمت بطنك كالأنعام تطعمها ... ما تشتهيه ألا نهى تحاذره
وما لسانك لاه عن بذاءته ... على الفواحش داء الكبر يجبره
لهمّ بطنك ما لاحظت عاقبة ... يا من تصاغر والدنيا تكبره
هل أنت طفل وكم طفل تجاذبه ... دعواه للصوم لولا الأمّ تزجره
وأنت تأبى صيام الشهر من سنة ... قضيتها فى هوى لهو تخامره
ماتت وفاتت وفات العمر يتبعها ... هل أنت تدرى متى يأتيك آخره
ياحسرة المفطر المبطون حين يرى ... مشاهد البطش منمن ليس يعذره
يا عبد سوء أطاع المؤمنون وقد ... أضعت أمراً إله العرش آمره
هل تدّعى دعوة الإيمان كاذبة ... وتنتمى لطريق أنت هاجره
هل ينفع المرء إيمان بلا عمل ... إن حلّ فى القلب إيمان ينوره

فتستجيب لهُ الأعضاء عاملة ... بما به المنذر المبعوث أنذره
وهل سمعت بدين لا فروض بهِ ... يأتى بها من بهِ تقوى شعائره
وهل تميز منمن لا خلاق لهم ... إن لم تصلى لمولانا وتذكره
أم يافتى إن تركت الصوم مبتدعاً ... يقال هذا سليم القلب نيره
لا بل يقال بطين سافل شرهٌ ... لشهوتيه هواهُ اليوم قاهره
لو كنت ذا عاهة أفضت لمخمصة ... وجمت مافوق شهر كنت تصبره
تالله لو عجل الله العقاب لكم ... وأفطر العبدُ طغياناً لدمره

لكنه أجل البلوى لموعدها
في الموقف الصعب هل ياعبد تذكره

وشرّع الصوم تطهيراً وتزكية ... لمن على النفس والشيطان ينصره
ماذا على الله إن صام الخلائق أو ... إن أفطروا أترى ضداً يعيره
وهل ترى الصوم إلا فرط مرحمة ... يهدى لها العبد فضلا ثم يأجره
أهل الكمال لهم فى الصوم مصلحة ... تخفى على من له بطن تباكره
لكنما القوم تاهوا فى غوايتهم ... عن كل رشد ظهور الدين يظهره
كل يقول مقالات تقدمه ... المجد لكن مساويه تؤخره
من كان يؤمن أن الله موجده ... وأن طه بأمر الدين مخبره
ماعذره فى المعاصى والتهاون فى ال ... أمر الذى آى مولانا تكرره
فلا تلمنى إذا لم ألتزم أدبى ... دعنى أوبخ وغداً دأبه الشره
وإن تكن عاقلا ذا حكمة فطناً ... اصفع بنعلك عبد السوء تجبره
فالمجد مجدان مجدٌ كل قارعة ... تذود عنهُ موافيهِ وتنهره
كالعزل والموت والفعل الذميم وما ... دارت ليعتبر اللاهى دوائره

وبجد أهل التقى بجدٌ لو اجتمعت زلازل الكون لا يرتج منبره
بجدٌ بآفاق دين الله مطلعه وفى سماء التدانى سار نيره
يرقى بأهليه للعليا فيقعدهم فى مقعد جلَّ عن وهمى تصوُّره
فيا بطين ومن تدعوه شهوته أن يمض شهر التهانى وهو مفطره
أسأت بالرسل ظناً وارتكنت على قول الذى كل دين ظل يزجره
شهر شريف وفرض ليس بجحده إلا الذى كل ذى ذوق يكفره
فاسلك سبيل رجال حالهم حسنٌ ووصفهم فى الكتاب الحقُّ ذاكره
ودع مناهج من يردى تلوُّنهم إن التلوُّن لا تربو متاجره
هم يدَّعون صلاحاً والفساد بهم كما يرى من يرى قد شدَّ مئزره
لا أصلح الله حال المفسدين ولا ببغض الدين يوماً سرَّ زائره

والله على كل شىء قدير

سئل مفطر رمضان لِمَ لِمْ تصم هذا الشهر الذى لا يأتيك إلا فى كل عام مرة وما كلفت فيه بشىء شاق فإنك فى كل أيام الشهور لا تأكل إلا غدوًّا وعشياً وهما هما فى هذا الشهر وإن تغيرت مواعيد التعاطى وقد أباح لك الله تناول ما تشتهيه فى ذلك الليل الطويل منه إذاً فلا معنى لمخالفتك الأوامر الإلهية التى لا يضرك اتباعها سيما وأن مخالفة أهل ملتك ووطنك فى أعمالهم لا تعد من الوفاء فلماذا لم تتخلق بأخلاق الرجال فى مسابقة أهل دينك إلى مقاصدهم الخيرية فقال إن هم بطنى عبطنى

بيان ذلك

يظهر الهلال فى أوّل ليلة من رمضان فينادى منادى الحق تبارك

و تعالى يا أمة محمد (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) وهذا النداء ما خفي صوته ولا ضاع أثره وخبره ولا يضيع مادام القرآن يتلى ولكن له إشارة كالعلم متى رفعت لباه أهله عند رؤية تلك الإشارة ألا وهي الهلال فتسر أمة محمد صلى الله عليه وسلم بذلك النداء إذ هو نداء اعتناء ومحبة ويهرعون إلى الاجابة بالتلبية والعمل وأعني بأمة محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين الذين شرح الله صدورهم للإسلام وإن كانوا من العوام الذين لا علم عندهم لأنهم أهل التصديق أهل الاذعان أهل الوفاء أهل الخضوع للأوامر أهل الانكسار فيما هدون الله على إجابة ذلك النداء من أول ليلة إلى آخر يوم من الشهر ولكن منهم المحسن أي الذي أتى بعمله على الوجه المطلوب ليجني ثمرته وتظهر في عوالم بشريته آثار حكمته إذا كانت حكمة الصوم المطلوبة من العوام أن ينسى الرذيل رذائله ويرتفع ذو الفضل إلى درجة أرقى مما كان عليها في الفضائل متحصنا من الشيطان بهذه الوقاية الربانية فكأنه عند النية عاهد ربه أنه لا يتركه ويتبع الشيطان ومعنى أنه لا يترك ربه أنه لا ينساه بالملاهي إذ الإنسان متى هجر شهوتي البطن والفرج وحبس لسانه عن فحش الكلام ولغوه لا يتوجه إلا إلى الوجهة المطلوبة وهي القرب من الله بالمراقبة المستديمة هذه هي حكمة الصيام للعامة وهي تحتاج لفكر سليم يستعملها بحال ثابت بمعنى أن الصائم لا يجوع ويظمأ نهاراً ولكنه يستعد لإذهاب ذلك الجوع والظمأ عند الافطار بكل لذيذ يراه في يومه فيكون انفاقه في شهره هذا يقاوم ما ينفقه في سنته لتحكم بطنه عليه فيكون مثله مع نفسه كمثل مربي كلب الصيد يمسكه حتى إذا رأى الصيد أطلق سراحه بل المطلوب أن يتناول كلما قدم له من

الطعام ثم يتحرز من الامتلاء ليقوى على العبادة الليلية من صلاة وذكر وتسبيح وبكاء ودعاء واستغفار واستحضار الموت والموقف الطويل والحساب الدقيق وغير ذلك مما لو علمه الانسان علم اليقين ما أكل طعاماً على شهوة قط هذا هو المطلوب من صيام العوام وأما الخواص فحالهم قد عبر عن بعضه تابعهم بقوله

أصوم عن الاغيار قطعاً وذكركم سحور لصومى فى الهوى وفطور

إذ القوم مبرأون من متابعة الشهوات الهوائية فى جميع أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم فلا يزيدهم الصوم حالا فى أخلاقهم بل ربما كان الفطر فى غير الشهر المفروض عند بعضهم من الاعمال التى يهذبون بها نفوسهم إذا شموا منها رائحة الإعوجاج كما حكى عن بعض الصالحين وأظنه أبو يزيد البسطامى أنه دخل بلدة فهرعت إلى تعظيمه اسماعهم إنه صوام وقوام فلما أقبلوا عليه وكان صائماً فرحت نفسه بذلك الاقبال فطلب رغيفاً وأخذ يأكل بحالة حولت عقائد غالبهم عنه إلى ضد ما كانوا يعتقدون وماذلك إلا لأنهم رضى الله عنهم لايرون فتنة أشد من إقبال الخلق عليهم ولا يرون غروراً اكبر من غرور النفس بحالها التى هى عليه لعلمهم ان الاحوال لا تدوم

وقد استعاذ من ذلك الاستاذ سيدى على وفا بقوله نعوذ بإقبالك من صدك نعوذ بعطائك من منعك نعوذ بك من وحشة أنس المقام بالضم فى المقام بالفتح ونعوذ بك من غرور النفس بالحال مراده من وحشة الأنس ركون السالك إلى أى مقام سلكه من مقامات القرب لأن ذلك الركون يمنعه من التقدم الذى هو التنافس المذكور فى قوله

تعالى (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) الذين هم أهل المجاهدات الاخروية إذالركون إلى الراحة مانع من موانع الجدفى العمل الاخروى ومراده بغرور النفس بالاحوال انها إذا رأت اقبال الخلق عليها بالقبول اطمأنت وظنت انذلك نعمة من الله وكرامة ولكن القلوب منهم يخافون الخدعة الالهية التى تترتب على مخادعة النفوس لربها لأنهم دائماً يتهمون أنفسهم وقد قال الله تعالى فى حق قوم (يخادعون الله وهو خادعهم) فلذلك لا يأمنون مكره لعلمهم بسرعة تقلب القلوب وسرعة حلول المقادير بما لم يكن فى الحسبان كما قال ابن عطاء الله فى مناجاته الهى أن إختلاف تدبيرك وسرعة حلول مقاديرك منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك فى بلاء فمن كان هذا حاله يكون فى صوم دائم وأن أفطر وفى ذكر وان كان صامتاً وفى وجل وان كان ضاحكا وإن للقوم لحال فى هذا الشهر فوق تصور أمثالنا إذ لا يعرف العارف إلا العارف ولنرجع إلى مانحن بصدده فنقول وأما من جاذبه شيطانه ايمانه من الذين انتموا إلى هذه الامة بمجرد انتماء وغلبته نفسه لضعف يقينه وقوة المرض فى قلبه فأولئك الذين انقسموا أقساماً أحدثتها الاستعدادات والقوابل فمنهم من خالف طريق العوام التى ذكرناها فى صومهم إلى طريق أخرى مع علمه بأنه مخالف للحكمة المطلوبة وأنه ماحصل فى صومه شيئاً مما حصله الفضلاء فتراه يتغاضب حيث لا غضب لانه صائم ويلعب مع اللاعبين لانه صائم وينام عن الصلاة فى الغداة لانه صائم ويجمع أنواع الملاذ عند الافطار لانه صائم ويقضى ليله فى الزيارات والمسامرات لانه صائم ويستعمل مبعدات ربما لم يكن يستعملها قبل صيامه لانه صائم حتى أنك لترى أقواماً من الجهلاء

يستعدون للعب قبل شهر الصوم باستحضار عدده كما يستحضر المجاهد أسلحته وهؤلاء هم الذين لا ينظر الله اليهم ولا يزكيهم وماهم من الأمة فى شىء

(ومنهم)

الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين . إذ العمل هو أحد الأركان التى عرف العلماء الإيمان بها لأنه إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح . فمن ادعى الإيمان بلسانه وزعم التصديق القلبى ولم يعمل بعمل أهل الإيمان كانت دعواه لا دليل لها ولا برهان فتكون باطلة عند الله وعند عبيده لأن العبد الذى لم يعمل أعمال العبيد لا يعامل معاملة العبيد المخلصين سيما وقد ذكرنا أن الأعمال تطهير شرعى وتزكية ربانية ومن لم يطهره الشرع ولا يزكيه الله لا يتزكى حتى وإن كان أمهر الناس عملا للدنيا وأفصحهم مقالا وأغزرهم علماً وأكثرهم فيها إصلاحاً ، فقد يجعل الله صلاح الدنيا على يد البار والفاجر ورب كافر يعمل فى إصلاح الدنيا فوق ما تعمله الأتقياء وذلك لأن الله خصص لكل عامل عملا ولكل عمل عاملا بتخصيص أزلى على حسب القوابل والاستعدادات لأن الحكمة لا تضع شيئاً فى غير محله ولا غرض لله فى أعماله وتخصيصاته وهو سبحانه وتعالى لا يستعمل عباده فى الأعمال دنيوية كانت أو أخروية ولا يمدهم بالامدادات والبواعث إلا بمقتضيات الترتيب الأزلى الذى حكمت به سوابقهم الاستعدادية فمن كان مراداً محبوباً وفق لأعمال القرب والمحبة ومن كان على غير عناية من ربه سهلت له طرق الاشتغالات الدنيوية والملاهى الشيطانية ومثل هذا إذا عرضت أعمال الاتقياء يعدُّ عمله من السيئات ويكون مردوداً عليه كما ذكرنا سابقاً .

فعلى هذا يكون العامل أقرب شبهاً لغير العامل الذى لم يراعى حكمة العمل وهؤلاء هم الذين أحاطت بهم الخطايا من حيث لا يشعرون وأخذ بمخنقهم الشيطان إلى التهلكة وهم غافلون حيث سوّل لهم أن الفرائض الدينية ليست ذات أهمية لأن الله غنىّ عنها وعن عمالها ودس لهم السم فى الدسم بتفهيمهم أن الله سبحانه وتعالى لا يحب الإنسان إلا صادقاً فى المعاملات متحاشياً أذى المخلوقات ساعياً فى مصالح الخلق ثم بعد ذلك يفعل الإنسان مايريد فتكون تلك الوساوس سبباً لهلاك القوم الذين فقدوا النور الإلهى الذى به يفقهون أن الصدق فى المعاملة وكف الأذى عن الخلق والسعى فى مصالحهم بل وكل الاعمال الخيرية ماأمر الإنسان بها ونهى عن ضدها إلا ليكون خالصاً من الشواغل التى تشغله عن القيام بالمفروضات التى إذا أداها على الوجه المطلوب يكون متحققاً بأوصاف عبوديته التى متى اتصف بها استحق اقبال الحق عليه بأنواع التحف القربية التى لا يذوق حلاوتها إلا أرباب الأذواق السليمة وما شرع الدين إلا لذلك .

وأما حسن المعاملة وكف الأذى والسعى فى المصالح فتلك أمور قد تكون من الحشرات وغالب الحيوانات أكثر منها من بنى آدم إلهاماً من الله ورحمة وقد تكون من الإنسان بواسطة سيطرة أرباب السياسة العادلين عليه ككسرى أنوشروان مثلا أو فكتوريا ولو كان الدين قاصراً على ذلك لما كان لله أن يرسل رسوله إلا لأهل الأذى فلو كان لذلك المفتون نظراً واسعاً مستنيراً لأدرك ما وراء الجدران فيعلم حكمة إرسال الرسل ولكن زخارف الدنيا حالت بينه وبين معالم الآخرة والله لا يهدى القوم الظالمين .

ومنهم من يقول إن الله جعل لإسقاط الصوم كفارات وما علىَّ من شيء في الافطار إذا كفرت وأسقطت الصوم عني فيكون مثله كمثل جندي لملك من الملوك أمر جنوده أن يقربوا له قرباناً عيَّنه لهم ليعلم صدقهم في محبته لالاحتياجه لذلك القربان وليمتازوا من بعضهم فيتحقق الطائع بطاعته والعاصي بمعصيته حتى تسقط دعوى مدعيهم الطاعة بغير برهان واضح ثم قرر للضعيف منهم قراراً جعل عليه فيه جعلا خفيفاً يأتي به في نظير ذلك القربان فلما جاء موعد جزاء تلك الأعمال أخذ ذلك الملك ينظر في أحوال القوم فاذا منهم من قرَّب قربانه على محبة وصدق وفاء وسلامة قلب وحسن ظنٍّ وإخلاص نية وصفاء مودة ومنهم من قربه حياءً وخجلا على غير رضاء قلبي ومنهم من قربه بصفاء قلب وصدق نية ولكنه لم يأت به متقناً حسناً كما جاء به الأولون ومنهم من أتى بالجعل لعدم قدرته على القربان أو قدر عليه ولكنه أشغله عنه مطلوبات للملك أهم من ذلك القربان ومنهم من جاء بذلك الجعل حياءً وخجلا كأمثاله من أهل القربان ومنهم من أتى به قهراً على غير رضاء قلبي فما كان من الملك إلا أن قبل المخلصين أهل الصدق والوفاء من الفريقين ورد الذين كمروا بغيظهم لم ينالوا خيراً . هكذا حال من ذكرناه مع ربه في إسقاط الصوم بالكفارة يطلع الله أولا على قلبه ومافيه من المحبة والرغبة والتشوُّق إلى خدمته ثم ينظر إلى كفارته من أين جمعها وكيف أنفقها فإن صادفت وجوه القبول قبلت وإلا رُدت على صاحبها ومعنى الرد أنها تضبط في دفاتر السيئات حتى إذا مارآها في صحيفته يوم القيامة يحيط به الخجل والوجل لقدومه على التقرُّب إلى مدارك العقلاء بغير أدب ولأنه لم

يتحفظ من رذائل البشرية إذ لا يستوى مقدم الهـــدية للملك وهو مستصغرها ومستصغر لنفسه خائفاً من الرد وجلا من الاعراض والصد وهو يتمنى رضاء الملك وقبولها لتشمله عواطف رحماته مع علمه بأنه غنيّ عنها وأنها من فضلات إحسانه وبين الذى أرسل هديته مع تابعه غير مبال بالقبول والرد لا راغباً فى القرب ولا راهباً من البعد ولكنه مجرد إذعان بأنه من رعايا الملك فافهم تسعد وماسأل الأبرار التوفيق للسداد والرشاد من الله إلا لهذه النكتة الفارقة بين العمال وبعضهم والله يتولى الصالحين يخرج الذين آمنوا من ظلمات الغرور والافتتان إلى نور الادب والاحسان ويذر الظالمين مع الشياطين حول جهنم جثياً ، ثم إن الله تعالى لينظر فى أعمال أهل الكفارات التى عملوها فى الأوقات التى صام فيها الصائمون وقام فيها القائمون ليجازى كل عامل بعمله فتكون خطيئة الذين كفروا بتشديد الفاء عن صومهم مضاعفة فى العقاب لأنهم خالفوا أمراً وارتكبوا نهياً

فتأمل الفارق الذى يكون بين رجل معدم خمول لا شهرة له ولا ذكرى صام يومه حق صيام وقام ليله حق القيام مع تكبده مشاق الهموم المعاشية وقضى شهره على هذا الحال ثم جاء فى يوم العيد باكياً لأنه ما علم هل هو من المقبولين الناجين أم من المطرودين الهالكين وبين أمير كثير المال عظيم الجاه أفطر نهاره وقطع آماد لياليه فى تخيل أبهته وعظمته عند الاحتمالات والمجامع الليلية وأنفق فى الكفارات مالا عظيماً أمر به وهو عالم أنه جاء بما يليق بمقامه وأبهة مجده ليقال أن فلاناً فعل كذا فهل إذا أوكل الله أمر معاملتهما عند الجزاء اليك ماذا تقول وماذا تفعل أظن أن الفرق لا يحتاج

إلى بيان والحكم على كل منهما غير متوقف على تروٍّ ولا نظر وانك الآن لتعلم أيهما أرجح منزلة عند الله وأقرب تمكيناً وأوفر عقلاً وأحسن أدباً وأكمل إيماناً ولهذه الملاحظات أجهد الأنبياء والرسل نفوسهم فى تعليم أممهم لان البلاغ سهل ولكن التأديب والتهذيب شاق سيما تأديب الاغنياء الذين فقدوا مزايا الإنسانية التى أوضحناها فى كتاب نشر الاسرار البشرية .

ومنهم أهل الشك المذبذبين الذين لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء أولئك الذين قال الله فيهم (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) ومعنى الله يستهزىء بهم أنه لا يبالى بهم فى أى وادٍ هلكوا لانه لو نظر اليهم بعين العناية لوفقهم كما ينظر الملك أو الامير فى أحوال قوم وفدوا عليه فمن علم منه صدق المحبة وحسن الادب وكمال الوقار أجلسه فى محل التكريم ومن رأى منه الوقاحة تركه فى اسطبل الدواب كذلك حال القوم مع ربهم من كان منهم سليم النية طاهر الطوية قربه وأرشده ووفقه ومن كان مع الشياطين تركه وشهوته فترى من هذا حاله يدَّعى الصوم حتى إذا خلا بالخمار سكر وتناول مايشتهى والله رقيب عليه من حيث لا يشعر ومعالم الارض تلعنه وهو لا يسمع والشياطين تضحك منه وهو لا يبصر أولئك هم الصم البكم العمى الذين لا يعقلون أولئك كالانعام بل هم أضل .

(ومنهم)

من أفطر جهاراً واستحى أن يصوم لكيلا يسخر منه قرناء السوء الذين نهى الله عن مصاحبتهم وقال ابن عطاء الله مشيراً لهم لا تصحب من لا ينفعك

حاله ولا يدلك على الله مقاله سيما فى هذا الزمن الذى قويت فيه عصابة الاشرار لزعمهم أن الدين هو مجرد الحضارة والتمدن وما الهذين الوصفين من نتيجة إلا الصدق فى المعاملة وكف الأذى كما ذكرنا سابقاً وإنما الفتنة يضل الله بها من يشاء من عباده ويهدى من يشاء فكان إباء من هذا حالهم عن متابعة المتدينين من السلف الصالح كإباء أبى جهل عن متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمثال هؤلاء داخلون فى حوزة قوله تعالى (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد) وليس فى هذا الخطاب قسوة يدعيها المدعى المجادل لا نا لم نقصد معيناً مقصوداً ولكنها حكاية أحوال انتشرت شرورها وقد قال تعالى (إنما المؤمنون إخوة) فمن كان أخا صادقا حمل هذا على محمل حسن وجعله من قبيل الغيرة الدينية على الرابطة الاخوية فتقبل كلام أخيه وقابله ببشاشة القبول ومن لم يكن أخا فلا حاجة لنا به ولا نبالى رضى أم سخط ولكنا نقدم لإخوان الوطنية نصيحة التشريع التى أمرنا الله سبحانه وتعالى ضمن قوله تعالى (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) فأقول ان من أرذل الرذائل هجر مناسك الدين لكل من انتمى إلى دين من الاديان السماوية إذ الرجل العاقل ذو الهمة كامل المروءة فى أمر دينه على حالين إما منكر مكذب وإما مصدق معترف فالمنكر المكذب لا ينبغى له الانتماء إلى الدين الذى جحده وأنكره بحال من الاحوال لان هذا هو النفاق والذبذبة بعينها والمتصف بهما لا عقـــل له ولا مروءة ولا همة ومن هذا حاله لا يوجه له خطاب ولا يستلفت برقيق عتاب والمصدق المعترف لا يمنعه من القيام

بواجب حقوق ما اعترف به إلا ضعف الهمة وخسة الطبع ودناءة النفس وموت المروءة وأى عاقل يرضى أن تكون فيه هذه الاوصاف أو أحدها فالواجب الآن على كل ذى عقل ومروءة أن ينهى نفسه وأهله ومن أحب من جيرانه وإخوانه وأهل وطنه عن هجر الدين الذى كلنا وكل عالم به يعترف أنه طريق النجاة ومسلك الفوز ومسقط الرحمة ومنبع الفضل وكمال الشرف وعلى كل من وافاه رمضان الشريف وهو صحيح البنية سليم العقل متمسك بدينه أن لا يضيع أيامه فيما لا طائل تحته وأن يتحرز فيه عن كل رذيلة توجب المقت الإلهى وأن يتخلق فيه بأخلاق العبيد المخلصين لعل وعسى أن تنغرس فى ربوة فؤاده شجرة اليقين الحق والإيمان الصدق ويسلك مسلك النجـــاة فى هذه الايام القلائل والحياة القصيرة التى تمر بنا مرّ السحاب بالمطر حتى إذا تساقط كانت كأن لم تكن.

واعجباً لابن آدم يدعى الكمال من حيث لا يدرى ما هو الكمال إذ غاية الكمال أن يكون العبد عند سيده مجاب الدعوة مسموع الكلمة مقبول الشفاعة لو أقسم على الله لابرّه وبدايته أن يرى نفسه أحقر الناس منزلة وأضعفهم عملا وأكثرهم لله مخالفة وأبعدهم منه تقربا وأكثرهم خطايا وأحقهم بالمقت وأجهلهم بنفسه وربه وأن يتتبع السالكين الذين سلكوا سبل النجاة باقتفاء آثارهم فكلما رأى دعاء دعا به وكلما سمع بقربة جدّ فى عملها ويتعهد مناقب الصالحين وأوراد المجدّين ويتشبه بأكابر الابرار المقربين ومن ادعى حالا للكمال غير ذلك فهو مجهول لا يقتدى به. وغاية النقص أن يكون ممن لا ينظر الله إليهم الذين أسقطتهم من أعين الله رذائلهم البشرية

والرذائل التى تسقط العبد من أعين الله معلومة منها قوله ﷺ إذا تسابت أمتى سقطت من أعين الله فكل سباب مغتاب لعان ساقط من أعين ربه وإن كان من العظماء وأن يكون متكبراً فخوراً معجباً بنفسه وأن يكون مجادلا بذىء اللسان مخالفاً لرسول الله ﷺ فى أعماله وأحواله وبدايته مخالفة التابعين والأئمة المجتهدين وطلب الدنيا رغبة فيها وزهداً فى الآخرة لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ما أظلم ابن آدم لنفسه وغيره وذلك لأنه يتبع الرخص فى أمر دينه إن كان عاملا ولا يأتى فى أمر دنياه إلا بالعزائم ومرادنا بالعزائم هنا الأعمال الشاقة التى لا تتحملها البغال وتراه يفتخر بما حصله من تلك الأتعاب ويتباهى بما عمله من الحيل فى الحصول عليه ولا يخجل إذا أهمل أمر دينه بل لاشعور له بما هو الدين :

كأنه البغل إن أتعبته زمناً وجئت بالفول هزّ الرأس مسرورا

ما أجهل ابن آدم . جاءه الرسول بالآيات البينات وباهر المعجزات ودعاه إلى الكمالات وخوفه بالعوارض المهلكات وقاده بالسلاسل إلى نعيم الجنات فمرك أذنيه واضطجع على جنبيه على خجل من المراجعة فترك الأمر فى ضياع ودعة وناداه الشيطان إلى الرذائل وقال له لا تعجبنى حتى تتخلى عن جميع الفضائل وتتخذنى شريكا لك فى المال والولد ولا تفضل عنى فى الصحبة أحداً وذكره بالمثل المعروف عند العوام من لم يدخل النار فى محبة خليله وإلا فدخول الجنة عليه حرام ، ومع علمه بأن هذا المثل ما كان إلا تشخيصاً لما فعله الخليل الجليل مع مولاه فحفظه من مكر الماكرين ونجاه .

أغفلته غرته عن الرشد والصواب وقام يقرع من جهنم فى طريق الملاهى الأبواب طائعاً للشيطان وجنوده مختاراً غافلا عن قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً)

ما ألأم ابن آدم تترادف عليه النعم الإلهية ترادف الأمطار وتكلأه القدرة العلية آناء الليل وأطراف النهار ويصنع معه مولاه الصنع الجميل ويعامله بلطائف اللطف الجليل وهو كلما وصل إليه إحسان تمرد وكلما دعاه لمصافاته تشرد مغروراً بنفسه محجوباً بحسه ويا ليته إذا أصابته المصيبة تجلد جلادة الشجعان أو إذا ضرب بسوط من المرض تبلد بلادة الأغبياء من العبدان لا بل بأسرع ما يرى ينادى مولاه عند الشدائد كأنه من الذين تعهدوا فى محبته جميع المعالم والمعاهد غير خجل مما على عاتقه من الأوزار ولا منكر أنه ربما كان محسوباً فى دفاتر أهل النار فما أسمج هذا الطبع الرذيل وما أكرم مولانا البر العطوف الجليل .

واعجباً لمن أفطر رمضان كيف لا يخجل فى موسم العيد من مصافحة الصائمين أم كيف يتجمل بالملابس ويماس متطيباً لمعانقة الزائرين وكيف يقال له كل عام وأنتم بخير وهو ما تعرض إلا للشر والضير أى خير يرجى لمن أصر على المعصية شهراً كاملا مخالفاً لأمر ربه أيطمع هذا إذا لم يتب فى الإقالة من جنايته وذنبه . تالله إن هذا لهو الطمع الشيطانى والجهل والطغيان الحيوانى وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

يا ابن آدم تفطر رمضان حياء من محبوبتك الزانية أن تعلم أنك صائم فتزدريك أو تهجرك ولا تتقى خزيك بين يدى الله يوم القيامة ،

يا ابن آدم مهما كنت وكيفما تكون ما أنت إلا العبد الذليل المقهور للقدرة العلية الدائر في دائرة الإرادة الصمدانية لا تملك لنفسك من الله شيئاً لا قوة لك تقاوم بطش القوى المتين ولا ناصر ينصرك إذا ما خذلك مولاك يوم الدين وهذه أيام الصحة والسعة وما بعدها يا مسكين إلا الهموم والآلام الموجعة فلا تمش في شدة الهجير تحت هذا الظل الزائل ولا تغتر بزخرفة دنياك في أيامك هذه القلائل وتحرز من الغرور فإنه مهلكة الإنسان ولا تنس يا عبد السوء ما لمولاك عليك من الإحسان وجنب نفسك أعمال اللاهين لكيلا تكون عند حلول المنية من النادمين وأحسن أعمالك فإن رحمة الله قريب من المحسنين واطع يا أخي فإني لك من الناصحين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

﴿ تتمـــة ﴾

جاءت جواباً لسائل يقول ما هي الأسباب التي دعت إلى حذر خيار الأمة المحمدية تابعيهم من مخالطة المتقدمين من الملاحدة ونهوهم عن مطالعة مؤلفاتهم وهذا نحو تم سعهاء وكباراً وما هي الوجهة لهم في الحكم عليهم بالكفر وما الداعي لمعاداة الواقعة بين الطائفتين وكيف كانت نسبة الجنون لطائفة الصوفية من الطائفة الاخرى أما نسبة الجنون لهذه الطائفة يا هذا التي لا ريب في أن أهلها هم خيار الأمة وهم المؤمنون حقاً فما كانت إلا من طريق الوراثة من النـاس والمنسوبة إليه وإنما هي الغاية التي أشار إليها النبي صلى الله عليـــه وسلم بقوله أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون فلا

مفر لكل ذاكر يكثر من ذكر ربه من هذه النسبة لقوله ﷺ مامن مؤمن إلا وله جار يؤذيه إلى يوم القيامة إذ لا نسبة بين البار والفاجر ومتى فقدت النسبة وجدت العداوة ولا يتولد الأذى إلا عن عداوة ولما كان أتقياء الأمة هم ورثة النبي ﷺ وأعداؤهم هم ورثة أعدائه كل ورث صاحبه فى أعماله وأقواله وأحواله ثبتت نسبة الجنون لتلك الطائفة فى عقول أولئك السفهاء من طريق تلك الوراثة كما نطق بها القرآن الحكيم فى غير موضع ونفاها الحق سبحانه وتعالى بقوله وما صاحبكم بمجنون فكانت تلك النسبة تقع عند من نسبت إليه من الصوفية موقع البشرى

وأما السبب فى نهى القوم أتباعهم عن ماذكرته فما هو إلا أن السلف الصالح رضى الله تعالى عنهم وأكرمنا بمتابعتهم كانوا على قدم ثابت فى متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ديدنهم الدأب على شدة التدقيق وقوة التحقيق فى تلك المتابعة وراء المنقول قولا وعملا وحالا من الآثار النبوية للتحفظ من ورطات المعقول الذى منشأه التصور والإدراك الحسى الذى يحتمـــل الخطأ والصواب خوف الانحراف والميل عن الطريق التى جاء للإرشاد إليها النبى صلى الله عليه وسلم وتمم ومواصفتها لسالكيها من القوم الذين اختارهم الله واجتباهم لخدمته وأعنى بالخدمة الائتمار بالأوامر واجتناب المناهى مع بذل الجهد فى الدأب على اعمال القرب التى يلزم الإنسان بها نفسه من الطريق الودية ليحظى بمرتبة القرب ويصوم بعناية المحبة كما تفعل العبيد مع ملوكهم ولا يزال العبد كذلك حتى يتحقق بالاحوال الكمالية التى لا تكون من طريق التعمل وتأتى من مواهب الإحسان الربانى وما كان

لذلك التحفظ الذى كان عليه القوم من سبب إلا صدور الأوامر الإلهية وتواتر الأحاديث النبوية بالنهى عن متابعة الهوى الذى ظن السفهاء أنه قاصر على الميل إلى الشهوات البدنية ومعانقة المحرمات .

ولكن السادة الصوفية لا يعدون من هذا حاله إلا من الأنعام وأنه من إخوان الفسوق لعلمهم أن الله كم نهى أنبياءه عن متابعة الهوى مع علمه أنهم مبرأون من تعاطى المحرمات والميل للشهوات فما نهاهم إلا عن الخوض فيما لا يرشدهم اليه من قول وفعل وعمل ولذلك قال مادحا لنبيه (وما ينطق عن الهوى) فتحقق السادة الصوفية من هذا الطريق أن النهى عن الهوى لا يشير إلا إلى عدم الانحراف عن طريق الاستقامة التى أمر بها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تبارك وتعالى (فاستقم كما أمرت) فتيقنوا أنه لا طريق أنجى للسالك إلى ربه من متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن اقتفوا آثاره إذ لا مجال للعقل فيما حجر الله على المؤمنين الانحراف عنه فلذلك كان ذلك التحفظ رغبة فى النجاة والفوز . ثم أنهم لما علموا أن وصف فيلسوف كان فى ذلك الزمن بل وفى كل زمن علماً على كل ذى ذكاء وفطنة وفكر سانح وإدراك سريع استعمله فى مطالعة المؤلفات التاريخية والفنون المنطقية والعلوم الرياضية التى لا يميل اليها المائل إلا ليصل بتحصيلها إلى مطالب زائلة وأغراض عاطلة وغايات باطلة تزول بزواله ولربما زايلته قبل بلوغ آماله ، والقوم قد تحققوا بحق اليقين ونور الحكمة التى وهبها الله لهم أن هذه المطالب لا يركن اليها إلا طلاب الجيفة التى أشار اليها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله الدنيا جيفة وطلابها كلاب فلم تتجه هممهم بوجه من

الوجوه إلى تلك المقاصد وكانوا لاعناية لهم بتلك الفنون ولا لتلك الأغراض التى أجهد نفسه فى تحصيلها ذلك الفيلسوف التى ما زالت أفكاره متطاولة الاعناق وبصيرته ممتدة الآماق إلى العلم بالمعلومات غافلا عن مدارك الأوابين حتى تجول فى ميادين المباحث العقلية ذات الشعب التى لايجمع أطرافها إلا وادى التيه والحيرة حيث تمرح الشياطين وتهلك النفوس وتعمى البصائر عن طريق النجاة حيث لاهادى ولامرشد (ومن يضلل الله فما له من هاد) طوع جذبات الغرور والعصيان العلمى الذى أشرنا إليه فى كتاب نشر الاسرار البشرية عند ذكر الموانع الأربع لأن سعة الاحاطة بالمعلومات من طريق العلوم النظرية تذر صاحبها حائراً لايهتدى إلا إذا تقيد بالقيود الشرعية التى بها تتقيد شوارد الافكار وأمارات النفوس .

ولما كان كل من هذا حاله يسمى فيلسوفاً حتى وإن كان من عبدة الاوثان أو لاإله له أو منتسباً لاى دين من الاديان نسبة مجازية وهى حال مهلكة تخرج العبد عن أوصاف عبوديته وتبعده عن طريق الاستسلام والمتابعة التى ماجاء الرسول إلا بها وأشار إليها الحق سبحانه وتعالى بقوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) وما كان ذلك الخطاب إلا للقوم الذين اتبعوا أهواءهم فكانوا هم فلاسفة ذلك الزمن فلذلك مدّ أكابر السلف الصالح أبصار التأمل ووجهوا أعين البصائر ومطايا الهمم إلى البحث فيما عليه تلك الطائفة من الاعمال والاقوال والاحوال فما تبينوا لهم من الاحوال إلا التلبس بالمهلكات القلبية التى مانجا منها إلا القوم الذين وصفهم الله بالقلة فى قوله (وقليل من عبادى الشكور) كحب الجاه والغنى

والكبر والاعجاب بالنفس والزهو وغير ذلك مما لا يحصى وما سمعوا من أقوالهم إلا زخرفة أباطيل حشوها بدع وضلالات تتنقل بالعقل في مسارب الزيغ إلى غاية لا تدرك إلا عند أبواب جهنم وماشاهدوا من أعمالهم إلا مظاهر الرياء والتفاخر ودعوى الإصلاح مع اجتناب المفروضات الدينية وازدراء عمالها كأن لم يأت بها كتاب ولا رسول فعلم القوم من هذا كله أنهم عاملون على طريق من سلكها هجر الدين وتعرض لمقت رب العالمين لأنهم ما أسسوا بنيان مذاهبهم إلا على قواعد أربع ذكرناها في كتابنا المسمى بكشف الإزار عن مشوهات الاوزار فليراجع . فلهذا السبب نهى الخيار تابعيهم عن متابعتهم لكيلا يضلوا كما ضلوا وما كانت معاولهم التي عوّلوا عليها في نقض الأساسات الدينية إلا التظاهر بمدح الانبياء والثناء عليهم لا لأنهم رسل الله اجتباهم واصطفاهم واختارهم وتولى تأديبهم وتهذيب أخلاقهم وأكمل نورهم وجعل محبتهم وطاعتهم مقرونة بمحبته وطاعته بل لأنهم كانوا رجالا عقلاء مصلحين كما يزعم فلاسفة الأوربيين وماذلك إلا ليؤيدوا ماذهبوا اليه من أن النبوة مكتسبة اكتسبها الانبياء بأخلاق كمالية وأعمال مرضية حيث لا اجتباء ولا اصطفاء وقد كانوا ينكرون الملائكة كما أنكروا الشياطين متابعة لعقولهم التي أمرها الطيش وغلبها الغرور فاذا تطرق ذلك الريب المهلك إلى قلوب مخالطيهم أو سامعي أقوالهم المزخرفة بالزخارف المنطقية انسحرت تلك القلوب وتخللها الشك وظن ذووها أن كل ذي فطنة وذكاء وسعة فكر يساوي الانبياء علماً وعملا وحالا وتجوز متابعته ولو إلى جهنم وبئس القرار ولربما كان المتعمقون في الضلال منهم

يتطاولون إلى ازدراء الأئمة المجتهدين ويعددون لهم بعض هفوات وإن كانت مكذوبة ليظن الواقف عليها أنها نقائص ويتوهم أن ذلك القادح المنتقد مع افتتانه وغروره أوسع منهم إلى الهداية مجالا وأثبت منهم على الحق حالا ومقالا من حيث لايخطر بباله أن الأئمة رضى الله عنهم ماجاؤا إلا بما عمل به النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام ولو عمل عامل بمعشار ماجاؤا به لنجا فلا يكون المجتهد الآن بعدهم إلا أخا زيغ وتطفل أو مفسداً تسرب بتمويهاته إلى صد القلوب عن معتقداتها الدينية فتهلك تلك القلوب بذلك الزيغ كما يهلك الملسوع بسم الثعبان إذ الله سبحانه وتعالى ما جعلهم أضداداً لخيار خلقه إلا لهذه الحكمة لما سبق فى علمه وحكمته أنه لا يخلق شيئاً من الأشياء نافعاً إلا ويخلق فى مقابلته ضارّاً يقاومه ليفعل عند كل منهما مايريد بخلقه فان حكمة وضع الأسباب ثابتة إلى انقراض الدنيا فلاتخلوا من ضالين ولا مرشدين حتى تقوم الساعة وكما أنه جعل للأبدان حشرات تؤذيها عند تحكم القضاء المقدور كذلك جعل للقلوب آفات تميتها وللأسرار حشرات تهلكها لأن الكلمات التى يلقيها الزائغ الذى تلقى سحر البيان إلى مسامع ضعيف الإيمان تفعل بقلبه مالا تفعله سموم الحشرات ولما كان سالك طريق القوم عند بدايته ربما يستعين عليه الشيطان بهؤلاء الجنود لذلك شدّد المتقدمون من السلف الصالح فى التحذير عن مخالطة كل شاذّ عن طريق النبوة وحرموا على تابعيهم مطالعة مؤلفات الفلاسفة التى لانهاية لسالك سبيلها إلا أن يدعى أنه الإله المستقل باختياره وتدبير شؤون نفسه بقدرة وإرادة يتظاهر بالاعتراف بأنهما موهوبان له فراراً من تكذيبه وبطلان

دعواه وقد بيناذلك فى نشر الأسرار البشرية ثم يغدو امستنكفاً عن عبادة ربه مكتفياً بما افتتن به من العلم بالمعلومات الكونية التى ربما لم يحط منها بما أحاط به عصفور أوسنور ولغروره وإعجابه بنفسه يزعم أنه عرف ربه معرفة أغنته عن كل معلم وأنه لكاذب إذ لو عرف ربه معرفة ذوى الالباب والبصائر لأخذ منهُ الحياء والخجل مأخذاً عظيما يضطره إلى سلوك طريق الأدب التى سلكها الأنبياء وورثتهم وبذلك يغض البصر عن عيوب الناس ويتبصر فى عيوب نفسه التى مارضى عنها غيره حتى يعلم أهو من الناجين أم من الهالكين ولو نقد أحوال نفسه ووزنها بالميزان الشرعى لعلم أنه ساقط العدالة لما فيه من الأخلاق التى ما أحس بفسادها إذ الغيبة التى هى أصغر عيب فيه مثلا قالوا أنها أشد من سبعين زنية فى الإسلام وأمة محمد صلى الله عليه وسلم شهداء على الناس يوم القيامة والشاهد لا يكون إلا عدلا فجزى الله السلف الصالح خيراً فيما صنعوا فلولا نهيهم وتحذيرهم من متابعة إخوان الشياطين لما وصل الينا خبر ديننا القويم وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين لولا تداركنا الله بلطفه وسخر لنا قلوب عباده الصالحين حتى حفظوا قواعد الدين وأساساته فويل لنا إن أضعنا ماحفظوا وويل ثم ويل لمن استحب العمى على الهدى والله لا يهدى القوم الظالمين وأما وجهة خيار الأمة فى الحكم بكفر تلك الطائفة فما هى إلا لأنهم ازدروا الفرائض التى ماشرعها الله وافترضها على عباده المخلصين إلا ليطهرهم ويزكيهم ويظهر شرف الإنســان على العوالم الأخر فأبى الظالمون إلا كفوراً وأى شرف كشرف رجل سليم القلب صالح النية طاهر الأخلاق مهذب النفس وافر العقل يقف بين يدى ربه

مناجياً وداعياً فى اليوم والليلة خمس مرات متحققاً بأوصاف العبودية متأدباً بآداب الربوبية يقول يارب ويجيبه لبيك ياعبدى فما أشرف هذا الموقف وما أكمل ذلك المواقف ولكن السفهاء ظنوا أن هذا عمل لا يقصد به إلا الاعتراف بالعبودية وإذلال النفوس المتعالية فلا يحتاج اليه إلا النفوس الشرودة الأبية والله غنى عن ذلك فلذلك زعموا أن الصلاة ليست ذات أهمية واستدل الحمق منهم على ذلك بأنها لو كانت ذات أهمية لحدد الله فى القرآن أوقاتها وبين أركانها وبعضهم استدل بغير ذلك غافلين عن عناية الله بأحبابه التى بها ألزمهم أداء الصلاة فى ساعة العسرة عند اشتداد الكروب فى مواقع الحرب لكى لا يمنعهم مانع عن شهود ذلك المشهد الشريف وهل بعد ذلك عناية وشدة طلب ومن المفروضات الدينية الحج وقد كانوا يطوفون البلدان سائحين فى أطراف الأرض وأكنافها ويمنعهم الإباء ودواعى الشقاء عن حج بيت الله الحرام وقد قال تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غنى عن العالمين) وماوراء نص القرآن مبحث فلذا حكموا عليهم بالكفر وبعضهم قال بكفر الطبعيين منهم وفسوق الآخرين فيكونون من فساق الأمة الذين هم مرجون لأمر الله إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم لأنهم زعموا أنهم مصلحون وكل مصلح هاجر لمناسك دينه فهو المفسد لقوله تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض) يريد بالترغيب فى الدنيا وصرف القلوب عن الآخرة (قالوا إنما نحن مصلحون) لزعمهم أنهم ساعون فى إصلاح شئون قومهم فقال الله تبارك وتعالى (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)لأن إخوان الطيش والغرور كحلفاء

الخور فى نقص الادراك ودهشة الفكر كذلك كل مصلح يريد تهذيب الأخلاق بغير الطريق التى جاءت بها الرسالة .

وماجاءت الرسالة إلا باستعمال الفرائض والنوافل الدينية حتى تتوطن النفوس على الانقياد للأوامر الشرعية وتهجر الأخلاق السيئة ولا يكون ذلك إلا باستدامة العمل بالمناسك إذ الإنسان بل وجميع الحيوانات فى كل يوم على حال جديد فى الخلق والخلق وإلا لما كبر الصغير وفنى الكبير وضلّ قوم بعد الهدى واهتدى آخرون بعد الضلال إذ التغير فى الشئون الكونية من المشاهدات الحسية والمعنوية فلذلك ألزم أحبائه وعباده المؤمنين استدامة الصلاة والذكر لتقييد النفوس كى لا تشرد إلى شهواتها ولكن المنكرين قد حجبهم الغرور والطغيان عن تلك المشاهد فظنوا أن الفرائض الدينية لا احتياج لها وجحدوا أهميتها فلذلك حكموا عليهم بالكفر . وأما تسميتهم سفهاء فلأنهم توارثوا منقول قواعد دينهم لا عن نبىٍّ مرسول ولا عن ولى مقبول ولكنهم توارثوها عن أفراد ما نالوا من العلم إلا قليلا فى خطوات خطوها وراء شياطينهم وخلق عقول أهاجها عتيق الخمر الذى كانت تلك العقول لا تصادق الشرائع على تحريمه لما توهموه فيه من المنفعة البدنية وما علموا أن الله جل شأنه وتقدست أسمائه ما نهى عنه إلا لأنه مجلبة اتباع الهوى فما زال بهم ذلك الطيش حتى ألزمهم التجوّل فى البحث فى ذات الله مع ورود النهى الشرعى عن ذلك وسموا ذلك المبحث ومقدماته الإلهيات وزعموا أن الإنسان يتصل بربه بالعلم بالمعلومات الكونية ولا يزال باحثا فى تلك العوالم حتى يعثر بربه فى نهايتها وإذ ذاك يجد نفسه وجها لوجه أمام الحقيقة الأبدية

فيكون كربه يعلم كل ما يعلمه ربه لا يغرب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ويا ليت من ذهب إلى هذا المذهب علم ما فى زوايا بيته أو مقدار ما يخرج من دبره فى يومه ولكنهم تعوّدوا القول بلا عمل فكان ذلك المسلك لبصائرهم بجلبة العمى كالمكتحل بما لا تسعه آماقه . ومن العجب أنهم لا يعبأوون عند مزاحمة الجدل بما لم يرد به وارد من الكتاب القديم ليكونوا عاليين وما كانت قواعد دينهم مؤسسة إلا على ظنيات وأوهام آراء ما ورد بها كتاب ولا سنة فلذلك سموهم السفهاء فقال ذلك السائل كيف تنكر أن العلم هو طريق الوصول إلى الله وقد قال الله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ولا تكون الخشية إلا عن قرب وعرفان أولم تذكر فيما سطرته فى نشر الأسرار أن العلم هو نهاية مسارب الواصلين وأشرت إلى أن ذلك العلم هو الرؤية التى طلبها الإمام ابن الفارض فى رائيته الشعرية وأنه هو موقع الإشارة من قول القائل لو كشف عنى الغطاء ما ازددت يقينا فأجبته نعم ولكننى ذكرت قبل ذلك أن العلم بالله غير العلم بالاغيار وعرفتك أن العلم بالاغيار وأعنى بها كل ما سوى الله غير محجور عليه بل يشترك فيه كل من أراد الله منه عملا يحتاج فى أدائه إلى علم معلومات كافية للقيام بذلك العمل لأن الخلائق هى مظاهر أفعال الله تعالى فلذلك يشترك فى ذلك العلم الأعمى والبصير وما عنيت بالأعمى إلا صاحب الدليل الذى أشار إليه الصوفى بقوله ما رقينا مقاماً إلا وسبقنا إليه ذلك الأعمى بعكازه أى بدليله لأنه لا يعتمد فى سيره على الدليل العقلى إلا من لم يجعل الله له نوراً يتابع به الرسل إذ الدليل لا يتطرق الا الى المعلومات التى فى قوة الفكر الاحاطة بشىء منها والحق سبحانه وتعالى

قد احتجب فى سرادقات عزه عن أن تدركه الأبصار أو تحيط به الأفكار أو تصل إليه العقول فكل متجه إلى ذلك الحمى الأقدس الاحمى من طريق العلم بلا عمل فليس بذاهب إلا إلى مواقع المكر والاستدراج الإلهى وما فوق ذلك جهل وسفه وأما العلم الذى يهبه الله لعباده الصالحين من طريق التجليات الذاتية فما هو إلا العلم الربانى والفتح الصمدانى الذى عبرنا عنه بالكشف عن الذات بالعلم النورى نقلا عن السادة الواصلين وهو محجور إلا عن الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وليست التقوى هى مجرد الشعور بالعظمة كما زعم المبطلون فقد تعلم عظمة السلطان وتهابه وترهب سطوته ولكنك تبغضه إذاً فلا تكون التقوى إلا مع الوقوف فى المواقف التى فرضها الله على عباده تحت ميازيب الرحمة ومهابط الانوار امتثالا لوعد ربهم اذ قال لهم أنى فى قبلة المصلى فلو وعدك حبيب باللقاء فى مكان خاص واكتفيت بلقائه فى أى طريق لكنت من الممقوتين وربما طردك طرداً مؤبداً وما أشغل السفهاء عن تلك المشاهد القدسية الا الموانع التى أوضحناها فى نشر الأسرار لأن التقوى التى يتوقف العلم النورى عليها لاتخالط تلك الموانع لأنهم اشترطوا أن المتعرض لنفحات ربه لابد أن يكون متشبهاً بالملائكة فى قولهم (سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) وكل من أحاطت به تلك الموانع يدعى أنه عليم حكيم (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) فبهذا تعلم أيها السائل أن العلم بالله لايكون الا بعد طهارة القلوب من الاغيار وتنويرها بالعمل المفروض والحاقه بالنوافل بطريق متابعة الرسول فى الأعمال والأحوال لا العمل الذى اعتقدت الفلاسفة أنه هو خلاصة

الدين إذ الدين والدنيا ضدان لا يجتمعان فى قلب واحد ومن زعم ذلك فهو جهول ضال لا يدرى ما الله صانع به حالا واستقبالا ولقد تقول المتقولون على الصوفية انهم قالوا إن الإنسان بمجرد الصلاة يصل إلى ربه وإنه بمجرد الإيمان يقول للشىء كن فيكون ولو أراد أن يزحزح الجبل من مكانه لفعل

ولقد كذب الناقل وافترى القائل وتنزه القوم عن صدق هذا الخبر الذى ما كان إلا كجارة السوء التى لا تذيع إلا ماتوهمت صدقه من الأخبار المحزنة ولقد خلق الإنسان هلوعا وما كان قول الصوفية فى هذا الموضوع إلا أن الإنسان إذا وهبه الله كمال الإيمان وتعرض لنفحات ربه حتى أدرك وصلة المحبة التى لا تكون إلا بعد معرفته نفسه على ماهى عليه من الأوصاف بالطريق التى ذكرها الإمام ابن عربى بقوله بعد كلام لاشهد فناء مالم يكن وبقاء مالم يزل وأرى الأشياء كما هى فى أصلها معدومة مفقودة وكونها لم تشم رائحة الوجود فضلا عن كونها موجودة هنالك يجتمع شتاته وتنفعه صلاته وصلاته فيتخلق بأخلاق العبودية ويتحقق بحقيقة الإنسانية التى أوضحناها فى كتاب نشر الاسرار البشرية فيكون هو الإنسان الكامل الذى قال له ربه عبدى أطعنى تكن ربانياً تقول للشىء كن فيكون كما كان عيسى عليه السلام وجميع الخلفاء الذين اصطفاهم الله وهؤلاء هم القوم الذين تمسكوا بلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم واعتصموا بقوة بسم الله الرحمن الرحيم متبايعين لرسولهم قدماً بقدم ومن اقتفى آثارهم علم أخبارهم وتبين أسرارهم وأنوارهم ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة نور والصوم جنة بضم الجيم ولا معنى للنور إلا العلم ولا ريب فى أن الإيمان الصادق الذى

هو روح العمل يرقى بصاحبه إلى أعلى عليين ويجلسه فى مقام التمكين فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ولقد طال المقال وضاق المجال وأجلنا وقوفك أيها السائل على حقيقة الفرق بين الطائفتين إلى ظهور كتاب سميناه النور الفارق بين الرامق والمارق يظهره سر القدر متى أراد الله الفتح الربانى والفيض الاحسانى فساعدنا بدعائك وامددنا بمدد رضائك (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا إنك أنت العزيز الحكيم) والصلاة والسلام على النور الساطع الذاتى الأحدى وعلى آله وصحبه والتابعين واحشرنا وارحمنا معهم برحمتك ياأرحم الراحمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

صحح هذا الكتاب المفيد وضبطه وترجم لمؤلفه رضى الله عنه ، كما قدم له . العبد الضعيف الفقير إلى ربه بدوى طه علام خادم العلم الشريف ومحب الصالحين ، غفر الله له ولوالديه وللمسلمين يوم الدين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .